

جواد صيداوي

البحث عن بداية

" مجموعة قصصية "



الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية



بسم الله الرحمن الرحيم



الناشـــر

تهامـــة

جـدة ـ المملكة العربية السعودية

ص.ب ، ٥٤٥٥ ـ هاتف ، ٦٤٤٤٤٤٤

البحث عن بداية

مجموعة قصصية



الإهداء

إلى أولادي الأربعة ..

.. وإلى جميع أبناء جيلهم .

أملاً بغدٍ عربي أفضل ..

المؤلف




البحث عن بداية



البحث عن بداية

«إنسان في حالة احتضار• إنه مصاب في صدره، فى مكان ما من صدره• كان الليل ينشق عن جرح نابح عندما خرج من بيته، قال لنفسه : أضيع بين ادبار الظلمة واقبال الضوء• الانفجارات تتباعد فتراتها، الجوع يشد قبضة سعاره، عليه ان يخرج، سبعة اطفال يتضورون، يتضورون، لو كان يؤكل لاطعمهم نفسه••»

بداية رائعة قويةلم يذهب الجهد عبثا، لقد بدأت المعاناة تثمر، كلما اختمرت الحادثة في نفس الاديب جاء التعبير عنها اكثرنضجا واعمق ايحاء• منذ أيام وأنا أبحث داخل نفسي وخارجها، ابحث فى دوي الانفجارات، في الشوارع المقفرة، في صور الجثث المذبوحة ذبحا والمقتنصة قنصا، أبحث في تحركات الساسة واهتمامات القادة، في قيء المذياع وهذيان التصريحات، في القلوب المفجوعة والنظرات الخائفة• أغرق رأسي في الجحيم المستعر، أمسك بلسان من ألسنة اللهب المتصاعد،أستدل بواسطته على البؤرة لكي اطفيء النائرة وأرفع عن الأدب التهمة حتى وجدتها : «انسان في حالة احتضار•»

«النقطة» المنزلة بعد الجملة الاولى بالغة الاهمية، بعيدة الدلالة• بعض الكتاب يبالغون في استعمال «النقاط» بمناسبة و بغير مناسبة، في ذلك اسراف يسيء الى فلسفة هذه «العلامة» من علامات الوقف• غاية «النقطة» هنا محددة بدقة، انها تدعو القارئ

بقوة الى تركيز فكره وعاطفته وخياله جميعا حول صورة انسان مكره على مغادرة الحياة الدنيا خلال فترة قصيرة من الوقت، دون أن يدرك ذلك الإنسان لموته سببا، فهو ليس طرفا في النزاع القائم، وهو لا يعرف مقدمة البندقية من مؤخرتها. إنسان بائس، عضه الجوع فاخرجه من بيته، اراد ان يمسك باللقمة المدبرة فامسكت به المنية المقبلة، فاعيد الى اهله وهو بين الحياة والموت، اعيد وحده دون خبز ولا حلم بخبز.

وهذا المصاب، لم يمت بعد، وقد ينجو، إنه في حالة بين حالتي اليأس والرجاء،

والقارئ عندما يصطدم بالنقطة سيتوقف حتما، يحاول أن يغوص في نفس المحتضر: الخطر الناتج عن الاصابة لم يقض على أمله بالبقاء حيا، انه يتنفس، بصعوبة، ولكنه يتنفس

على كل حال، وهذا أمر هام جدا بالنسبة للحياة والموت، وهو على قدر كاف من الوعي يساعده على تذكر ما حدث له، عندما دفعته الحاجة الى مغادرة البيت فى صباح هذا اليوم، فقد طال انقطاعه عن العمل بدافع الخوف من الموت، يأتيه قنصا، يأتيه طعنا، يأتيه طائشا، والبطون الخاوية تريد شيئاً، اى شيء وما اعتاد القرش ان يمكث بيده ليعرف لونه فيعمل بالقول المأثور الذي يتحدث عن القرش الابيض واليوم الاسود. في القرية يختزن القروي بعض المؤونة، أما المدينة فلا تعطي امثاله الاكفاف يومهم، هذا اذا هي أرادت ان تعطي. أصحاب الكفاية لهم عالمهم الخاص جدا. منهم من يأتيه الرزق، اذا شمرت الازمة عن ساقها، في سيارات مصفحة. لذلك يستفيد هؤلاء من انحباسهم في بيوتهم المنيعة، بالنسبة له فان اجتماع الخوف والجوع عليه معا، حرمه حتى من المتعة المجانية، فقد حاول التعاطف مع زوجته مرارا، حاول في الليل وحاول في النهار، و بكثير من الرغبة والجدية احيانا فلم يجن إلا الخيبة.

لا ينبغي الاسترسال حول هذا النوع من الأفكار طويلا، فالموقف لا يحتمل مثل هذه المعاني الجانبية، لا بالنسبة للمحتضر صاحب العلاقة، ولا بالنسبة للقاريء المنفعل بقوة.

كما وان «النقطة» أو هذه «النقطة» بالذات تتيح للقاريء اللبيب أن يفطن الى بعض الجوانب الخفية التي يصعب على القاريء العادي أن يلتقطها بسهولة . من ذلك مثلا ، أن الانسان ، وهو في حالة احتضار ، يتكثف في ذهنه المتيقظ ، أكبر قدر ممكن من صور الأحداث الهامة التي عبرت في حياته ، او عبرت حياته فيها ، وهو ، اي الانسان المحتضر ، قد تتأتى له الفرصة ، اذا امد الله بعمره قليلا ، ان يقارن و يستنتج و يتحسر و يأمل ، وقد يدرك انه يموت ، اذا قدر الله موته ، مجانا ، لان وجوده قبل الاصابة كان وجودا مجانيا ، اي زائفاً . وانه كان بامكانه أن يجعل لموته هذا أو لغيره معنى ، لو انه حاول من قبل ان يجعل لحياته معنى . وهنا يتعلق المحتضر بأمل النجاة من الموت بقوة ، لا حبا بالبقاء فقط ، بل لأنه يشعر ايضا بالرغبة الصادقة ، هذه المرة ، على تغيير واقع الحياة ، حياته وحياة امثاله ، بجرأة واندفاع ، والى حد التضحية بالنفس .

وهذا الجانب من تفكير المحتضر ، اذا اتيح للمحتضر حظ من تفكير ، عظيم الشأن جليل الأثر ، وإن هو لم يرد في ذهن المحتضر ، أو لم يسمح الموت بتحقيقه بالنسبة له ، ففيه عبرة غنية جدا بالنسبة للقاريء ، إذ يثير في نفسه كوامن شديدة الانفجار تدفعه لكي يمسك بالمصير بيديه مزلزلا جبال الكبت والظلم والحرمان و يفرض التغيير فرضا . و يستحسن هنا ، تقيدا بواقعية الأدب ، ألاَّ يترك حبل القاريء علي غاربه فيلجأ إلي تحميل المعنى فوق طاقته ، والتحميل فوق الطاقه ، كالتحميل دونها : كلاهما غير محمود ، مع الاشارة الى أن من شاب على شيء غالبا ما يموت عليه .

وقد تراود المحتضر حسرة جامحة على ما فاته من متع الحياة الدنيا ، وعدم اقتناصه تلك المتع اقتناصا أو قنصا ، و بأية وسيلة من الوسائل التي يتوسلها الآخرون من الذين يعملون لدنياهم كأنهم عائشون أبدا . حتى ولو كان في اعتماد تلك الوسائل ارتكاب الكبائر المعروفة وابتكار كبائر غير معروفة .

الا أن هذه الفكرة، في حال ورودها، قد تفسد التأثير الذي تطمح إليه القصة، فينبغي معالجة البداية على نحو يصرف ذهن القاريء عن مثل هذه الاستنتاجات السيئة التاثير. والنقاد، معظم النقاد، مرهفو الحساسية تجاه ما يمكن أن يتركه الأثر الادبي في نفس القاريء من تأثيرات سلبية او ايجابية. وهم، بتركيزهم الثقيل على هذا الأمر، يعمدون، عن قصد أو عن غير قصد، الى افساد ذائقة القاريء من جهة، وخنق حوافز الابداع عند الاديب من جهة ثانية.

ولكن تظل معظم المعطيات الواردة آنفا كافية الدلالة على أن البداية على قدر من النجاح ذي أهمية. فهي، أي البداية، تكشف في كلمات قليله جدا، عوالم شتى، وفي نجاح البداية نجاح القصة.

«انسان في حالة احتضار. إنه مصاب في صدره، في مكان..» -

«إنسان في حالة..»

ولكنه إنسان مفرد، رقم من الارقام، والإنسان المفرد كاللفظة المفردة، يفقد قيمته الانسانية اذا لم يدخل في تركيب. ثم إن كل إنسان محتوم عليه أن يمر في حالة احتضار، على اعتبار أن «كل من عليها فان» فما هو المثير في هذه البداية؟

ولكنه رجل يحتضر لسبب غير عادي، في ظرف غير عادي، في بلد غير عادي، اصيب برصاصة طائشة، أو برصاصة محكمة ثم الحقت بها صفة الطيش، وما قيمة ذلك كله؟

اصيب مواجهة.. اصيب قنصاً..
وإن.....

أسباب عادية الى حد الابتذال، اذا كان للابتذال حد ما، عشرات من الناس ذبحوا مواجهة، باعصاب هادئة، دون أن يرف للذابح جفن أو ترتجف يد. والقنص سلوى

يمارسه البعض بنشوة جامحة كما يمارس الجنس . قنص الطيور أصبح سلوى مملة ، قنص الحسان ، بالمعنى الفاسق ، لم يعد مثيرا بعد أن أصبح الرزق مشاعاً وسهل التناول . أما قنص البشر ففيه من الوان الاثارة ما لا يمكن حصره أو وصفه ، سيما وأن إنسان هذا القرن المدبر ، بات ، مللا من مظاهر المدنية المسرفة في ماديتها ، تواقا للعودة الى بدائيته واننا لنرى ذلك واضحا في الرقصات الحديثة وفي بعض أنواع اللباس ، وفي السلوك الاجتماعي وفي العلاقات الجنسية .

ثم ان الناس أصبحوا بعدد ذرات التراب ، فضاقت الأوطان ببنيها ، والسلطة حفاظا منها على حرية الأفراد وحرية الجماعات ، تتحاشى التدخل ، بشكل أو بآخر ، في امور يقبل عليها المواطنون من تلقاء انفسهم .

فانتفت المسؤولية القانونية .

والناس عاجزون عن حماية بعضهم البعض ، أو مساعدة بعضهم البعض ، فلكل واحد منهم شغل في مصلحته أو في رزقه أو في جسده أو في أهله .

فانتفت بذلك المسؤولية الانسانية .

الهزال باد بوضوح على هذه البداية ، وهزال البداية يؤدي حتما الى هزال المتن وضموره ، والنقد قاس لا يرحم ، والقراء ــ غفر الله لهم ــ يسرعون الى الملل ، أو يسرع الملل اليهم ، ولو أنهم يدركون مقدار العناء الذي يقاسيه الكاتب في مواسم الابداع ، لغفروا له بعض التقصير ، خاصة اذا كان هذا الكاتب يحمل على عينيه نظارتين تؤخران عماه الآتي لفترة من الزمن .

حادثة فردية ، عادية ، والأفكار التي يوحيها الفرد ، حتى وإن لم يكن نكرة أو رقما كصاحبنا ، تظل ضيقة المجال محدودة التأثير . والتنبه الى عوامل الضعف في أول دروب

الابداع والخلق أمر هام، والإ جاء الجهد المبذول شبيها ـــ والعياذ بالله ـــ بجهد «سيز يف» الابدي البؤس .

لا بد بعد هذا العناء من فترة راحة قصيرة . ارهاق الذهن بشكل متواصل يلجم توثبه . تدخين سيكارة، تجديد النشاط بكأس ما ينعش ولا يسكر، بعض المغازلة الرز ينة اذا كانت الزوجة متوفرة مثلاً . لا ينبغي أن ينسينا الابداع بعض الواجبات الاساسية . الخروج الى الشرفة مع شيء من الحذر، فالرصاص اعمى . التجول قليلا في الشارع المقفر، دون الابتعاد عن البيت للدخول الى صميم المعركة، على الأدب أن يكون مغامراً نابضا بالحياة، ثم العودة . .

حصر الذهن من جديد، تخيل الأحداث، في الأحياء الملتهبة، تخيلا خلاقا، انتقاء الألفاظ ذات الوقع الجارح، الارتفاع الى مستوى المسؤولية عاليا، ثم الانطلاق من قيود الزمان والمكان الى أجواء لا نهائية الرحابة، لكز الخيال، تقطيب الحاجبين، مداعبة القلم برقة التملق ثم البدء :

«وطن في حالة احتضار . وصدق الله العظيم إذ يقول : «وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون» .

«الشوارع مغلقة بابواب هائلة الضخامة من الخوف» .

من حادثة فردية، عادية الى درجة التفاهة، محدودة الى حد الاختناق، الى حادثة جماعية رحبة المجال تشمل وطنا بأسره، باعتبار أن الأزمة عامه لم ينج من تأثيرها السيىء الا قسم ضئيل من مجموع المواطنين، والقلة لا أهمية لها أمام الكثرة الساحقة كما تزعم الديموقراطية .

والأوطان تحتضر عادة عندما تتوقف فيها حركة الحياة لسبب من الأسباب: هجوم شامل كاسح من الخارج، زلازل مدمرة، رياح سموم تعصف بالعقول والنفوس جميعا، أسلحة شريرة متطورة بين أيدي الجبناء..

القاريء، مع هذه البداية الآسرة امام اجواء متنوعة، غنية، موحية.

فالوطن المحتضر، كالانسان المحتضر، له ذكرياته وهمومه وآماله، فهو، اي الوطن قد يتألم، وهو يلفظ أنفاسه، على تنكره للمباديء الأساسية التي تقوم عليها الأوطان وتسير بهديها، فزمام أمره بيده منذ فترة طويلة من الزمن. لذلك يستعيد بسرعة صور بعض الفترات الهامة من تاريخه القديم والحديث فيتبين الخطأ و يتبين الصواب، و يأمل إن هو اجتاز المحنة العاصفة به بسلام، أن يعيد النظر، صادقا هذه المرة، في طبيعة تركيبه، وفي سلامة خلاياه الاجتماعية، فينبذ الفاسد المتعفن منها، ويخصي بؤر الفتن في الجماعات التي تتعايش فوق أرضه، ثم يعيد صهر الجميع بنار الوطنية الحازمة الصادقة العادلة، و يقوم بتربية الاجيال الجديدة بروح إنسانية منفتحة، وعلى شيء من الالحاد، لان تعدد الاديان يؤدي —في غفلة من الايمان— الى التنابذ والتنافر بين الناس للاستئثار بالاخرة بدءا من الاستئثار بالدنيا. وقد تثير صورة الوطن، وهو في حالة احتضار، في نفَس القاريء اذا كان القاريء مواطنا واعيا، او قابلا للتوعية، كثيرا من الانفعالات العميقة المؤثرة، وتأتي الانفعالات، من حيث القوة او الضعف، بحسب مكانة المواطن، ونوع عمله، ومركزه السياسي أو الاجتماعي أو الديني وبحسب طموحه أو خموله، فقره أو غناه. فانفعالات العامل غير انفعالات رب العمل، والمتزوج غير العازب، والمتخم غير المحروم، وعلى ذكر المحروم سيفطن القاريء —ولا شك— الى ان الحرمان و بنيه قد اصبحوا نوعا من النقد الذي يكثر تداوله في أيامنا، وثمة من يؤكد ان في تحرك المحرومين سببا من الأسباب المساعدة على احتضار الأوطان، لأن الخطر المدمر للمجتمعات يصعد غالبا من أسفل الى

أعلى، لذلك ينبغي قمع هذا التحرك في أوله: بالقنص على نطاق واسع، بالقصف المدفعي، بالذبح، بأية وسيلة تساعد على الحفاظ على التوازن القائم، فمن خلق ليعيش في اسفل السلم الوطني عليه ألاً يحلم بالتسلق. هناك حدود واضحة وقيم متوارثة، وهناك عهود ومواثيق منها المدون ومنها المتعارف عليه، وهناك أخيرا طبقات اجتماعية متمايزة خلقت، بأمر من ربك طبقات متمايزة.

هذه الخواطر، بعضها أو جميعها، تستوقف القاريء لدى بدئه القراءة، تمسك به، تهز وجدانه بعنف، فيدرك طائعا أو مرغما، بأنه امام حدث جلل وخطر داهم وأشياء أخرى، وأن عليه، أي القاريء، أن يتحرك على نحو ما. هذه البداية المزلزلة ستوقظ ضميره الخدر، لذلك سيبدو بعد الانتهاء من القصة، واستيعاب عبرها ومضامينها، الظاهرة والمستترة، مهموما، شارد النظرة، يدخن باستمرار، ثم يبحث له، بكثير من الجدية عن دور. في التفرج جبانة وفي العزلة خيانة. الوطن في حالة احتضار، إنه بحاجة الي بذل الجهود الصادقة المؤمنة، واذا مات الوطن — لا سمح الله — فما الذي سيبقى له؟

اذا كان عاملا فقد المصنع، واذا كان موظفا فقد الراتب وتوابعه، واذا كان تاجرا فقد — والعياذ بالاحتكار — كل شيء، واذا كان زعيما او مستزعما فقد الأنصار، واذا كان رجل دين لن يلقى من يصلي بهم او يعظهم، واذا كان كاتبا لن يجد من يقرأ له.

فلا بد إذن من البحث عن دور له، أي دور، والأدوار في مثل هذه الحالات لا تعد،

منها على سبيل المثال: الاعتصام والصوم حتى الموت، نثر الزهور على مدافن الشهداء وفي الشوارع التي يمكن أن يسقط على أرضها شهداء. حضور الاجتماعات التي تحكي عن المحبة والالفة بين أفراد الأسرة الواحدة، التجول على المتاريس مع ممثلين عن مختلف المذاهب الدينية لتوعية الإخوة الأعداء، العمل بجهد دؤوب على مصالحة الذئب والراعي..

« وطن في حالة احتضار٠٠ »٠ « وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون٠ » صدق الله العظيم٠

الخواطر العميقة التي أثارتها العبارة الاولى المنتهية بالنقطة، ستتضح بشكل أكثر سطوعا في العبارة الثانية٠ أناس أغبياء، أو أذكياء الي درجة خطيرة، يظلمون انفسهم بأنفسهم، وبملء ارادتهم، يهدمون الهيكل المتداعي عليهم وعلي الآخرين، سخرية جارحة، وبقدر ما تكون السخرية في الأدب موجعة، بقدر ما يكون أثرها في النفس عميقا٠ وإذا كان السلاح الرهيب يتدفق من الخارج وعليه بصمات مرسليه الشريرة، فإن هذا السلاح يستعمله المواطنون لا دفاعا عن وطنهم الوطيئة جدرانه، وانما في معارك نتنة في دناءتها وهمجيتها٠

ثم ان ايراد هذه الآية الشريفة في سياق الجملة ينبيء هؤلاء الأغنياء جدا والأذكياء جدا أن السماء على حياد تام بالنسبة لما يقبلون عليه٠ واذا كان الناس راغبين في الشر ساعين في أثره فان أي تدخل ومن أي مصدر جاء يعتبر تطفلا صريحا، وما كان الله ـ جل شانه ـ متطفلا٠ وعندما يعي المواطنون هذه الحقائق أو بعضها فقد يثوبون الى الرشد أو الى بعض الرشد فترد البنادق الى صناديقها والمدافع الى عنابرها والصواريخ الى جحورها، وهكذا تنطفيء النائرة ويجتمع شمل الأمة٠

لا موجب الى تكرار الحديث عن الفرق الكبير بين بداية تنطلق من المجموع وأخرى تنطلق من النكرة٠ إذا بدأ العمل الأدبي متينا انتهى متينا وبذلك يمد الكاتب قدمه نحو عتبة الخلود٠

« وطن في حالة احتضار٠٠ ».

وطن ؟

الحروف تفقد حرارة التجاذب٠

وأي وطن تريد ؟

ومن انت حتى تر يد ؟
وطن في حالة احتضار ؟

إذا قيل عن معافى، كائنا ما كان، انه لسبب ما ، في حالة احتضار، فقد يكون لقولك ، في نفس السامع او القاريء ، إذا وجدتها ، رد فعل معين : ألم ، حزن ، شماتة ، تخييب ، اتعاظ ، اندفاع للمساعدة .. أما إذا كان المتكلم عنه لم يعرف طعم العافية منذ ولادته فاية قيمة ، وأي تأثير للحديث عن موته أو عن تعرضه للموت ؟

وهذه ايضا ليست بالبداية الناجعة ، فليس في الأمر احتضار، ولن يكون فيه موت ، إن ما يحدث حولك وفي داخلك ما هو في الواقع المرئي وغير المرئي إلا فصل من فصول اللعبة الكيانية المستمرة ، على هذا النحو، إلى ما لا نهاية .

اما اذا كان ثمة نهاية ما لكل ذلك ، فما هي البداية؟ ما هي البداية؟





الفجر لا يصاغ دائماً من ضوء



الفجر لا يصاغ دائماً من ضوء

هذه القصة تبدأ بالشخير، لذلك لن تروق للقاريء المرهف، وهي، من حيث المضمون سلبية التأثير، أي سيئته، لذلك ستغدو عرضة لسهام النقد الباحثة عن فريسة سهلة المنال.

والشخير مرض خاص بالبشر، وبما أنه ينتاب – على الغالب – ذكورهم، نجد في تقاسيمه شيئا من نبيب الفحل، وفيه سر أعيا الطب، فهو لا يسبب للمصاب به أي أذى مادي أو معنوي، بل يقتصر أذاه على رفيق الغرفة، أو رفيق السبات الطويل.

وأول المتضررين منه – عادة – هي الزوجة، وقد يخفف من وطأته عامل الإدمان، فيغدو شيئا مألوفا تعتاد الزوجة على سماعه وتألفه، دون أن تطرب له، تماما كالخطب السياسية والتقارير الدورية العامة، خاصة متى كثرت في صياغتها حروف المد والحروف الحلقية.

ولكن بطلة هذه القصة، الباحثة بحسرة عن فجر، لم تستطع إخضاع حواسها العنيدة، وبالتالي لم تدمن الصبر، فالشخير الذي يأتي في الظلمة، منطلقاً من غرفة الزوج، منسربا عبر الرواق الطويل، يخترق باب غرفتها بوقاحة، ويضرب بعنف شرس على صدغيها ليحرمها متعة الغفو وعذوبة الأحلام.

ومن الخطأ الكبير قصر المأساة – مأساة هذه الزوجة الباحثة عن فجر – على الشخير بحد ذاته، فمنذ أن بدأ الشخير يمزق كل ستر عن عيوب الزوج الذي كان فحلاً، أصبحت

حبات « الفاليوم » تنساب في شرايينها انسياب اللون الأحمر في عيني الثور، الثور الأسباني طبعا، لذلك تهيج الصور الرهيبة في رأسها مخترقة ركام السنين، تنبثق الذكريات الموجعة من جميع مسام دماغها، ومن جميع مكامن الأنوثة الصدئة في جسدها، وتبدو الظلمة في عينيها ضياء لزجاً تسبح في عبابه الأشباح فوجاً في إثر فوج، فتضغط بيديها الخدرتين على الرأس المرهق، ثم تهب جالسة وسط سريرها وتضيئ النور لتلعن بصوت مسموع كل من شهد حفل زواجها، وكل من زيّن لها الزواج، وكل من زعم بأن الزوج هو سياج المرأة وتاج رأسها ٠

ولكن الشخير المحلق بحرية، عبر الرواق الطويل، والضارب بعنف على أعصابها، ما كان ليأبه بشتائمها، أو بأرقها، أو ببحثها المحموم عن فجر، فكان يعلو ويهبط، يتناغم و يتنافر، يخشن و يرق، يصلب و يتموج، ثم ينقطع لحظات قصيرة تأهبا للانطلاق من جديد، ولكل نغمة في عزفه المنفرد نكهة ألم خاصة، وتنصرف إلى لون من النشيج الصامت، وتتساءل بحرقة عن سبل الخلاص، فلا يبين لها منفذ مأمون العواقب ٠

لقد وقعت الجريمة منذ اليوم الذي هبط فيه على حياتها كاللعنة، محمولاً، كغيره، على متن البلاغ العائلي رقم واحد، فهي كبري أخواتها، ولا شورى في الأسر الكريمة، ولا من يستشيرون، لأن الشورى تعني الاختيار، والاختيار يفترض التعدد، والتعدد، بالنسبة للأسر الكريمة شر يزلزل الراسيات ٠ ووجدت نفسها مطوقة بحشد كثيف من النصائح المدرعة خنقت في صدرها الطفل كل تساؤل ٠ وعندما بكت بمرارة قال البعض ببلاهة: دموع الفرحة الكبري، وقال من هم أوفر ذكاء: إنها دموع الخجل والتربية الرفيعة٠ وبما أن خير الزواج ما تمَّ منه باكراً، فإنها لم تكن قد تجاوزت العشرين ٠

و يستبد برأسها الصداع بشراسة، و يضيق صدرها فتتنفس بصعوبة، والشخير في إبان عزفه ٠ وتطفيئ النور وفي يدها شوق إلى علبة «الفاليوم» وخوف منها، ثم تجمع أطرافها كوضع الجنين في أحشاء أمه، عازمة هذه المرة على الغفو، فتغمض عينيها بإحكام، وتتنفس بعمق، وتحاول طرد صورته من رأسها ٠

ولكن كيف أنجبت منه خمس مرات؟ وكيف قبلت بذلك كله؟ لم تعد تتذكر شيئاً، بل كانت احشاؤها تنتفخ حتى يكاد زورها أن يتشقق، ثم تضمر دفعة واحدة بعد أن تقذف بحملها إلى الخارج. والمرأة كالشعب، كلاهما لا يوطأ إلا بضعفه، وكلاهما يحمل كرها و يلد كرها. ولا بأس من الإضافة على هذا التشبيه الجيد أن المرأة أو هذه الزوجة الساعية إلى فجر، كانت تكون مالكة وجودها لو كانت مالكة جسدها، لأن مالك الشيء يتوصل حتما إلى معرفة كنه ما يملك، ومع المعرفة يتوفر حسن التصرف وحريته بكل ما فيه من سعادة أم من شقاء. ولكنها منذ أن أينع جسدها، وقبل أن تزهو بتفجر مواسم الجمال فيه، وجدت أنه ملك غيرها وبموجب صك شرعي. واستعادة الحق بالقوة تمرد يقمع بشراسة. ولا أدري ما هو موقف القاريء المتنور أمام مثل هذا الوضع الشاذ؟ بالنسبة لي شخصيا، فلا رأي على الاطلاق، لا بدافع التقية أو ما يشبه التقية، وإنما، يشاء الله، تجنباً لافساد السياق الفني للقصة، أو الإخلال بعنصر الموضوعية العزيزة جدا على قلب النقاد. وأظن ــ مجرد الظن ــ أن بين القراء، إذا ما أتيح لهذه القصة أن تقرأ، من يود، في قرارة نفسه، أن يقول للزوجة المغلوبة على أمرها، كما يقال عادة للشعب المغلوب على أمره: إن التمرد المخصي انتحار، ولا يبقى سوى الرضوخ العذب، لأن المشكلة، متى كانت فردية جداً، لا أهمية لها، وخروج الجائع على السلطان بمفرده، شاهراً سيفه أو أنيابه، سينتهي به الأمر إلى أن يذبح بالسيف الذي يشهر، وتظل شهرزاد المثل الأسلم حتى الليلة الواحدة بعد الألف.

ولكن الزوجة تأبى، بعناد مدعم بالوقائع، أن ترضخ، او أن تدمن الرضوخ، فإن هي احتملت الشخير، باعتباره مرضا، فكيف تحتمل فارق السن الشاسع، والعجز الشامل، وصنمية التفكير، والجراح الفاغرة، والحرية السليبة، والكيان المداس، والتقاليد العفنة، وألف عيب وألف نداء. وهي قد حاولت أن تصبر وأن تروض أعصابها، فكانت كالجارية الشابة التي تطعم سيدها الكهل من ذاتها، وهي مقيمة على جوعها. وكان يختار لها الثوب الذي ترتدي، والكتاب الذي تقرأ، والزائرة التي تستقبل، واذا هي تجاوزت في تفكيرها الحدود التي رسمها لها خصى عقلها، واذا تفوهت باكثر مما يسمح لها

بـه مـن قـول عقد لسانها ٠ وهي الآن في اكثر مراحل النضج واليناع نضارة وتألقاً ، تتحرق لـسمـاع الـكـلـمـة الحلوة، والنبرة الصادقة ، واللمسة الدافئة ، والهمسة المنعشة ، والعنف المسكر، والآفاق الرحبة المضيئة٠ وما هو بقادر على ذلك أو على بعضه ، وهي لم تعد تطيق وجـوده فـي حـيـاتـهـا أصـلاً ، أو تـسـمـع نـقيقه ونهيقه ، أو تحتمل فكرة عبثه الغبي بجسدها ومـشـاعـرهـا٠ ولـكـنـه موجود رغما عنها ، موجود كهذه الظلمة المطبقة على روحها ، وصك المـلـكـيـة بيده ، وهو يتجرع المهانة بصمت ، و يلوك الحرمان بصبر، و يأمل دائما بعودتها إلى سـابـق رشـادهـا ، وإقـلاعـهـا عـن الأوهـام المدمرة وقد يحاول أحيانا أن(يتمرجل)فيفضحه هزاله، و يتملق فيزداد احتقارها له٠

وتـتـقـلـب فوق سريرها فلا تجد الوضع المريح ، وتستعرض الحلول فلا تجد كوة ضوء ، وهـنـاك خمسة أبناء معلقون بأذيالها ، والمجتمع ظالم ، ظالم ٠٠ وتتلاحق موجات الشخير بتواتر قـاتـل ، وتـمـتـد يـدهـا المـرتـعـشـة إلى علبة الفاليوم ، وتعود الأشباح إلى رقصها الجنائزي الصاخب ٠

ومـن الـصـعـب ، إن لم يـكـن من المستحيل ، أن يجد المرء ، في مثل حالة بطلتنا ، الحل المناسب أو النصيحة الفاعلة ٠ بعض السذج قد يحملهم التأثر على الصياح بصمت : ولكن لماذا لا تنتقم المسطولة لحياتها بوسائل أخرى؟ ثم سرعان ما يخنقون الصيحة في قعر حلوقهم عندما يسوقهم توارد الخواطر إلى الدوائر الذاتية٠

وتـلـك الوسائل لم تراودها قط ، لأن ما هي بحاجة إليه هو شيء جدّي يفترض الصدق والـديـمـومـة والاسـتـقـرار، أما العلاقات العابرة وإن كانت سهلة المنال ، فكثيرا ما تؤدي إلى تـعـقـيـد الأمـور أو زيـادة تعقيدها ، والفجر الذي تبحث عنه بصدق لا يعني الضياع أو ما يـشـبه الضياع ٠ فهي تريد حلا جذرياً ناجعاً ، وقد باتت على يقين ثابت أن أفضل الحلول هـو زوالـه نـهـائـيـا مـن حـيـاتـهـا ، سواء بالطلاق أو بالموت أو بأية وسيلة ممكنة ، بذلك فقط تـسـتـطـيـع لململمة ذاتها المشتتة ، وإعادة بناء وجودها المنهار، وتدارك ما تبقى من أيام عمرها الهارب ٠

ولا يبدو لها أن حصولها على الطلاق بالأمر السهل، طالما أن صك الملكية المطلقة بيده، وما من شيء يدل على أنه مقبل على موت قريب، فهو ككل من تجاوز الخمسين من العمر، شديد العناية بجسده.

فالمشكلة، وان كانت فردية، ليست بالمشكلة العادية، لان بطلتها ليست بالمرأة العادية، ومن تسرع من القراء وأصدر بحقها حكما قاسيا فقد ظلمها. فاذا كانت الغالبية العظمى من الناس تقبل بالظلم الهابط على رؤوسها وتألفه، ثم تتجند له وتدافع عنه، فإن هذه الزوجة الغريبة التي جعلت الفجر هدفها، ترفض الانتماء بكثير من العناد الانثوي الانتماء إلى صفوف هذه الغالبية، لأن في طبيعة تركيبها، أو في برجها، ما يأبى عليها إدمان الرضوخ المذل ومهادنة القدر الظالم. وقد باتت على اقتناع راسخ أن ما مرَّ عليها من سنوات طويلة من الصبر الذليل، هو وصمة في وجودها يجب أن تمحى. واذا كانت فكرة الموت قد أجفلتها أول الأمر، فسرعان ما غدت، مع تزايد الألم مألوفة، ثم ملحاحة، ثم تطورت لتصبح، مع الأيام رغبة عميقة بموته، فما عانته وما تعانيه باستمرار بسببه هو أشد من القتل، والقتل أنفى للقتل.

لذلك ازدادت هواجسها صخبا، وازدادت كراهيتها له سعاراً، لأنه هو الذي يدفعها إلى الجريمة دفعاً. وأضيف على ألوان عذابها لون جديد هائل بثقله، و بدأت أشباح الظلمة تعرض في رقصها الليلي العاهر شتى أدوات القتل وأسبابه. واستهوتها فكرة السم لبساطتها وفعاليتها. وجنت الغرفة المظلمة بالهواجس الرهيبة، وحبات الفاليوم، الوردية اللون، تنساب في عروقها تباعاً، والليل منيخ أبداً، والشخير يعلو ويهبط و يتناغم و يتنافر، وعلبة الفاليوم تفرغ دفعة واحدة.

وعلى يدها الذابلة المرتعشه تنحط، برفق يد دافئة أشاعت في جسدها ارتعاشة عنيفة وخاطفة، فاغمضت عينيها لينكشف لها الأفق الداكن عن فجر وردي اعتنقته بشوق ثم ذابت فيه مخلفة فوق السرير جسداً هامداً ممتنعاً عن كل اذى.




السرقة
شلبي



السرقة

رحم اللـــــه جـــدتـــي٠

يقول الشيخ بعد أن يتنحنح عميقا :

ــ اطلبوا الرحمة لموتاكم كلما أتيتم على ذكرهم ٠٠

ثم يستدرك على عجل :

ــ ٠٠ وطلب الرحمة للأحياء غير مكروه٠

وجدتي ماتت منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة، ماتت مقهورة مكسورة الخاطر، كان عمري يومذاك اثنتي عشرة او ثلاث عشرة سنة، لا يمكنني التحديد بدقة٠ ورغم هذه الفترة الطويلة فان صورتها الطيبة تعمر مخيلتي بحيث لا تفسح بالمجال لأية ذكرى من ذكريات الطفولة بالبقاء طويلا٠ ولست واجدا لهذه الحالة تفسيرا، جميع الاطفال يتعلقون عادة بجداتهم، نفورا من الآباء والامهات، لكن مشكلتي بلغت حدا مخيفا من التعقيد٠ الاشارة الى عقدة «اوديب»، التي تضحك البعض تبكيني٠ وكل ما في الامر انني كنت، في طفولتي الاولى، شديد التعلق بجدتي، لا افارقها لا في ليل ولا في نهار، الانسان بحاجة قاهرة لان يتعلق بشيء ما في كل مرحلة من مراحل عمره، لكن الشيخ يحذر الناس دائما، وبشيء من الحدة، من التعلق بالدنيا٠ وحبي لجدتي يعود، فيما يعود اليه، الى انها كانت تدللني كثيرا، غير عابئة بتذمر ابي٠ تجلسني برفق على ركبتيها، وتلاعبني وتقص عليّ أحسن القصص، وعندما بدأت أتعرف على معنى القروش وقيمتها بدأت ــرحمها اللهــ تمدني ببعضها من الكيس المنتفخ المعلق دائما برقبتها، والذي كان

يسيل لعاب ابي كلما رآه. لذلك كنت اتعمد عندما تحتضنني، ان اتحرك على صدرها على نحو اسمع معه رنين القروش المعدنية داخل الكيس فأطرب طربا شديدا.

كان ذلك يوم كنت طفلا صغيرا، ولكني تجاوزت الآن من عمري نصفه أو ثلثيه، لذلك بات هذا الشعور بالطمأنينة والانطواء الذي ينتابني، كلما تذكرت المرحومة جدتي، يحرجني كثيرا، فأقف أمام المرآة وانظر الى وجهي بامعان، لا بدافع النرجسية، ليس لديَّ ما يحملني على عشق ذاتي ولا على عشق غيري، شعرات لحيتي صلبة كالابر، بينما جلدة وجهي طرية جدا، ما من رجل ابتلي بأمر لحيته مثلي، والشيبُ الفضي يكسو جانبي رأسي، وعيناي الصغيرتان ضعيفتا النظر، كعيـني شيخ حفظ جميع كتب الفقه والحديث والتفسير، متونا وهوامش، عن ظهرقلب، وكليتاي يتراكم فيهما الرمل والحصى بكثرة، وامعائي الغلاظ تنزف دما وقيحا، والفتق الفاغر في اسفلي لا يطيق فراقي الا لاشهر معدودة، ثم يطل ضاحكا ملء شدقيه، كأنه يلاعبني. كل ما في داخلي وما في خارجي يؤكد لي وللآخرين بأني لم أعد ذلك الطفل الصغير المتربع سعيدا على ركبتي جدته، لهذا أبحث باستمرار عن علاج لما أنا فيه، أغرق نفسي بالعمل فيحالفني بعض النجاح، ولكن الى حين. لجأت الى المرأة، اعتقادا مني بأن لكل شيء آفة من جنسه، فتزوجت، لكن زوجتي ــ سامحها الله ــ لم تطق العيش برفقتي طويلا، رغم انها كانت هي القوامة علي، فطلقتني وردت لي المهر مضاعفا.

يزعم الطبيب أن الرمل يتجمع في الكلية إما من الماء الملوث، أو من الفواكه والخضار غير المنظفة جيدا، إلا أن المرحوم أبي لم يكن ليؤخذ بهذه المزاعم، بل كان يردد نقلا عن لسان الشيخ، وكلما نزل المرض بفرد من أفراد الأسرة: لا طبيب سوى الله، و يستطرد أبي اجتهادا منه، فيرى جميع الأطباء منافقين، فما من طبيب استطاع أن يمسك بروح مخلوق آن موعد رحيلها، حتى ولو كان هذا المخلوق فأرة أو نملة أو شجرة أو ما شابه، بينما قدرة الله، سبحانه، معروفة لا تحتاج الى برهان. ولكني بدافع الحداثة في تفكيري، كنت احيانا أغامر وأتحرر من تأثير أبي فارغم نفسي على التقيد بنصائح الأطباء بشأن كليتيَّ

السقيمتين، فأتناول بعض الأدو ية بانتظام وأحاذر كثيرا عند تناول الخضار والفواكه، ولا أشرب من مياه الشفة الا المعبأ منها في قوار ير معقمة، ولدى تحليل البول يجد الطبيب ان الرمل في تزايد مستمر، وانه يتحول الى حصى صغيرة، بعضها يهبط مع البول من المجرى المعتاد فتكاد تحملني رعشة الألم الى حافة قبري، و بعضها الآخر يتشبث بجدران الكلية فيحرمني طعم الراحة أو النوم، فأعود مسرعا الى الايمان بما كان يردده أبي نقلا عن لسان الشيخ، وأجد أن أبي كان كالشيخ، دائما على حق، وأن جدتي كانت هي ايضا على حق عندما كانت تعالج الرمد في عيوننا بقطرات من بولها المقدس.

وكنت من فرط تعلقي بجدتي، أصر، حتى البكاء على النوم في غرفتها وفي فراشها بالذات، وعندما بدأت بتعلم القراءة والكتابة، كنت أقرأ لها ما حفظت فتفرح بي فرحا عظيما وتنهال عليَّ بقبلاتها وقروشها، وما كانت جدتي ــلحسن حظهاــ بقارئة ولا كاتبة، لكنها كانت أكثر فهما وأكثر ذكاء من أبي، وقد كان ــلسوء حظهــ يفك الحرف و يكتب توقيعه بخط يده، ويحفظ كل ما قاله الإمام علي في المرأة، و يرى نفسه، نتيجة ذلك من علماء زمانه الأعلام. وكان كثير الضيق بجدتي، يسفه أقوالها، و يتهمها بأنها ستفسدني بمعاملتها لي، ولكنه لم يكن يجرؤ على لومها أمام أمي، وكنت أتجنب نقل ما يقوله الى امي، لانني لم اكن احب طر يقتهما بالخصام وهي طر يقة لا اعتقد أن لها شبيها بين أي زوجين في البلدة. ولست قادرا، وقد كدت ان ابلغ من العمر عتيا، أن أصدر حكما بحق احدهما، اذا اخذت بكلام الشيخ القاتل بأن الرجال قوامون على النساء لحكمت لصالح ابي، لان أمي، في سلوكها معه كانت تخالف النص مخالفة صريحة، واذا أخذت برأي الدعاة الى مساواة المرأة بالرجل لحكمت لصالح أمي، لان أبي كان يرى المرأة كالبهيمة ناقصة العقل، ناقصة الدين، ناقصة الحقوق.

وذات مساء، و بعد عودتي من المدرسة، وجدت في غرفة جدتي امرأة غر يبة متشحة بالسواد، فلم أهتم بها فعانقت جدتي وانصرفت قابضا بيدي على القرش، وعندما أخذت ز يارة تلك المرأة تتكرر، على فترات متباعدة، بدأ الامر يثير فضولي، فحاولت أن أستوضح

من أمي سر الزائرة الغر يبة، وسبب اهتمام جدتي بها، لكن أمي زجرتني بحدة فسكت. غير أني انتظرت بقلق احدى هذه الز يارات، فاختبأت وراء احدى النوافذ استرق من ثقب فيها السمع والنظر، فرأيت جدتي تقوم، بعد أن أجلست الزائرة على طراحة قربها، الى خزانتها الخشبية فتأخذ منها بقجة كبيرة وضعتها بين يدي الزائرة ثم حلت عقدتها الكبيرة، وبعد أن استعرضت الزائرة محتو يات البقجة، أعادتها جدتي الى مكانها من الخزانة.

وصعب عليَّ كثيرا أن يكون هناك ما يشغل جدتي عني فحقدت على تلك المرأة الغر يبة، وكدت أحقد على البقجة لولا أنها كانت من خصوصيات جدتي، وكنت أحاول أن أضع الزائرة ذات الوجه الأجعد والعينين المطفأتين مكان إحدى بطلات الحكايات التي تحكيها لي جدتي، فلم اجد لها دورا مما قرن حقدي عليها بالخوف منها.

ومرت سنتان أو ثلاث.

من مزاعم الأطباء أيضا أن التدخين يورث ضعف الذاكرة، خاصة بعد سن الأربعين، لذلك ألجأ الى الإكثار من التدخين، وبكل أنواعه، سعيا وراء النسيان، فيحدث العكس وتزداد الصور الموجعة وضوحا في ذهني.

عندما طلبت مني زوجتي أن أستشير طبيبا، ضحكت من كلامها ثم حاولت افهامها بأن الزواج قد يقوم على غير الجنس، وفيما أنا مسترسل في الشرح والتوضيح رأيتها تبكي بمرارة وتشد شعرها بيديها ثم انهالت عليَّ بشتائم من نوع معين. وفي اليوم التالي طلقتني ثلاثا لانها لا تستطيع البقاء عذراء كل حياتها كما ادعت أمام القاضي.

بعد سنتين أو ثلاث أصاب المرض جدتي وأقعدها في الفراش، لا تغادره إلا في الحالات الضرور ية، فكانت أمي تأتي لها بالطبيب وتشتري لها الأدو ية غير مبالية باعتراضات أبي الذي كان يأسف على هدر المال دون فائدة ترجى فيصيح مقلدا لهجة الشيخ:

ــ اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ٠٠

ولا أدري لماذا كنت أطرب لدى سماعي كلمة «يستأخرون» عندما يلفظها أبي مفخمة؟ ولكن جدتي لم تكن تغرم احدا بدفع قرش واحد، ففي الكيس المعلق برقبتها معين لا ينضب ابدا٠ وكنت دائم المكوث قربها، أسرع في تلبية طلباتها واحدثها واستمع اليها، وحضرت الزائرة الغريبة مرة وأنا في غرفة جدتي، فرحبت جدتي بها واجلستها قربها دون ان تطلب مني الانصراف وإنما طلبت مني أن آتيها بالبقجة من الخزانة بنفسي وأن أحل عقدتها الكبيرة، ثم ادارت وجهها نحو الزائرة المتظاهرة بالاهتمام وقالت لها بلهجة واثقة:

ــ أشعر بأن ساعتي قد دنت٠٠ وربما كانت هذه وصيتي الأخيرة، بعد غسلي جيدا ترشين محتوى علبة الكافور على جسدي كله ثم تضعين عقد العقيق في عنقي، العقيق يضيء في القبر، وبعد ذلك تدرجينني في أكفاني الثلاثة تباعا، استحلفتك الله بتنفيذ رغبتي كاملة، ولا تسمحي لاحد بالتدخل في هذا الأمر أو حتى بابداء الرأي٠

ورأيت الزائرة تهز رأسها الشبيه برأس البومة وهي تقسم بأنها ستنفذ رغبة جدتي بحذافيرها، وسيكون الملكان الشاهدان، شاهدين عليها٠٠

ولم احتمل البقاء في الغرفة بعدما سمعت هذا الحديث المخيف، فهربت مسرعا وقد اغرورقت عيناي بالدمع٠

ومنذ تلك الحادثة، وأنا أصاب بالشرود كلما تذكرت جدتي فانطوي على ذاتي وأذهب في رحلة الى القبر فأرى جدتي وهي في زينة الموت، مسجاة في حفرتها الضيقة، وحبات العقيق الأحمر تضيء ضياء ساطعا يبدد عنها الخوف ويجعل حسابها، على يدي منكر ونكير، يسيرا لا قسوة فيه٠

واشتد المرض على جدتي فلم يعد باستطاعتها مغادرة الفراش، وبات الجميع يترقبون

ساعة موتها، وكنت كلما وقفت الى جانبها أراها تشير الى الخزانة فأذهب مسرعا وأحمل البقجة بين يديَّ فيبين الاطمئنان على وجهها و ينعكس على وجهي·

وفي إحدى الليالي افقت مذعورا على صراخ أمي وإخوتي، كان صراخ أمي حادا كأنه ينادي جميع من في البلدة بأن يحضروا، فركضت، وأنا نصف نائم، نحو غرفة جدتي محاولا استباق الموت اليها، فوجدتها ما تزال على حالتها وكانت تبكي بصمت· وفوجئت بأن المسكين أبي هو الذي مات، مات بذبحة قلبية صرعته في دقائق معدودة، وعندما جاء الطبيب كان كل شيء قد انتهى، وبما أن أبي لم ينذر احدا بموته فلم يكن قد جرى الاستعداد لتجهيزه من قبل، وكان رحمه الله على العكس من جدتي يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، لذلك سمحت أمي لنفسها بأن تستعير له كفنا من اكفان جدتي الثلاثة، دون علمها وطلبت اليّ أنا بالذات أن أقوم بهذا الأمر، فأفسدت ـ سامحها الله ـ حياتي برمتها·

و بعد دفن أبي، مكثت قرب جدتي وأنا أبكي بمرارة، والمسكينة تحاول التخفيف عني بلمسات يديها المعروقتين، وما كانت تدري أن أكثر بكائي كان بسبب ما حدث للبقجة، ليت أمي لم تشركني في جريمتها المنكرة، وكنت أتمنى لو أن أمي تشتري بدل الكفن المستعار قبل ان تنتبه جدتي الى الامر، وكنت كلما لجأت الى تذكيرها أسمع منها جوابا زاجرا فيزداد همي و يعمق شرودي· وكانت أمي مشغولة بمصابها وخراب بيتها كما كانت تردد دائما، ولم استطع معرفة سبب هذا الاهتمام الكبير منها بأبي، بعد وفاته· ولم تنقطع النساء عن الحضور بكثرة الى بيتنا طوال أشهر عدة بعد وفاة أبي، ونسيت أمي الكفن المستعار، وانهمكت أنا في دروسي وامتحاني، واستمرت جدتي تراوح مكانها لا تتحسن ولا تسوء·

وذات مساء وصلت الى البيت فوجدته هادئا غير عادته، أسرعت الى غرفة جدتي فوجدت أمي والزائرة الغريبة و بعض الجارات، ورأيت علامات الاسى على وجوه الجميع· اقتربت من جدتي فراعني منظر وجهها بهزاله واصفراره المخيفين، امسكت يدها

وانا غير مصدق أن هذه الكتلة البشرية الشوهاء هي بقية جدتي، ورأيتها تفتح عينيها بصعوبة، وادركت من حركة عينيها أنها تريد البقجة، فتجاهلت رغبتها والألم يعتصر صدري ورأسي اعتصارا، وسمعت حشرجة صوتها يقول لي وكأنه آت من أعماق بئر بعيدة القعر:

ــ أعطني البقجة ..

ولم استطع رفض طلبها، فوضعت البقجة على صدرها وحللت عقدتها بيد مرتجفة والدموع تتلاحق على خدي، فمدت يدها وتناولت بمشقة كبيرة علبة الكافور ثم عقد العقيق، ثم الكفن الأول فالثاني ... ورأيت عينيها تبحلقان على نحو لا يمكنني نسيانه أبدا، وسمعتها تصرخ كأنها تتحدى الموت:

ــ أين الكفن الثالث ؟

ثم سكنت لا حركة ولا صوت، ورأيت امي ترتبك ارتباكا شديدا، وهي تحاول تطمينها والتخفيف عنها، ثم نادت امي المرأة الغريبة الى خارج الغرفة على عجل فأسرت في أذنها بعض الكلمات ونقدتها مبلغا من المال أخذته المرأة وانصرفت مسرعة، ورأيت عيني جدتي المغلقتين تعتصران بعض الدمعات الصغار، فحاولت ببلاهة، كعادتي في جميع محاولاتي الجادة، أن أخفف عنها بعض ما تعانيه وسمعتها تهمس:

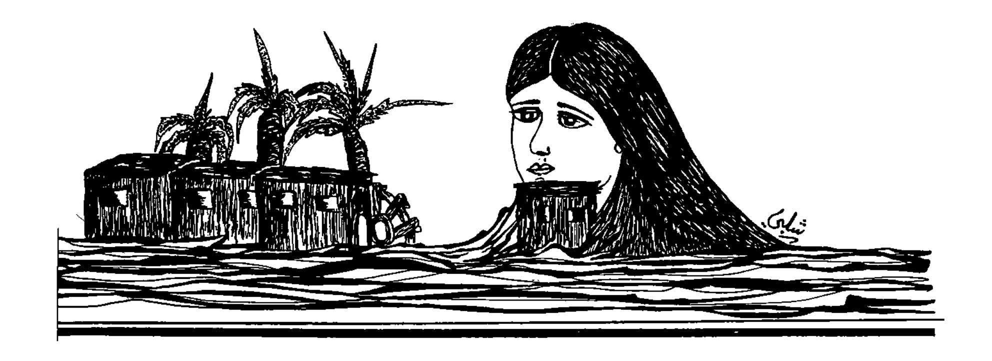
ــ من سرق كفني يا ولدي؟ من سرق كفني ؟

وكدت أصرخ، وشعرت بالازدراء والكراهية نحو أمي ونحو نفسي ونحو الناس جميعا، كيف أقبل أن تموت جدتي وهي على هذه الحالة من الأسى والقهر؟ لماذا لا أخبرها الحقيقة؟ لماذا لا أجرؤ على طرد جميع من في الغرفة الى الخارج ؟

وانحنيت على يد جدتي أقبلها مستغفرا باكيا ورحت وأنا منحن على يدها، في غيبوبة لم أسمع خلالها نداءآت أمي والنساء الحاضرات، ثم رفعت رأسي بعدما أحسست بحركة مخيفة داخل صدر جدتي، ثم سمعتها تشهق شهقة عميقة أنهت عذابها، بينما بقي السؤال معلقا على شفتيها الزرقاوين ودفن معها دون أن تحظى بجواب.



حَوّای



حواء

ليست الجنة هي المسرح هذه المرة، ولكن المسرح الأرض، وإذا شئت مز يداً من الدقة، بقعة ضيقة من الأرض كانت ترتفع فوقها منازل واكواخ قر ية لبنانية تقع في منطقة الحدود الجنوبية ٠

وبما أن لكل قر ية ــ في الغالب ــ مجنون أو مجنونة، يألف الناس جنونها، فقد كان لتلك القر ية الأمامية مجنونها الخاص، ينفرد بها فلا يشاركه فيها منافس أو منافسة، وكان يدعى «خدك أحمر» ٠ وإذا تغابيت وسألت أحد أبناء القر ية من العقلاء، عن مصدر أو مضمون هذا الإسم الغر يب رمقك بنظرة إشفاق ثم أجابك، بعد أن بدأ الشك يداخله في أمرك:

لقد قلنا لك بأنه مجنون!
فتضطر عند ذلك بالصمت الاعتصام بالعاً الحجر خوفاً من تطور الشك عند محدثك ٠

وكان «خدك أحمر» يعيش مما تجود به أيدي المحسنين، وكانت الحسنات تقاس بما تثيره حركاته وأقواله ونظراته من ضحك ومن استهجان عند الناس ٠ وبما أنه كان مجنونا حقيقيا فقد كان جميع مايبدر منه يدر الرزق، فالناس يضحكون عندما يسعى إلى اضحاكهم، و يضحكون عندما ير يد أن يبكيهم، فكان يكتفي بجمع حسناتهم اليسيرة غاضا الطرف عن غبائهم المثير لرثائه ٠

وكـل يـوم تراه يقوم بعرضه الخاص في ساحة القر ية وأزقتها ، فيسير بخطى وئيدة محدقاً أمـامـه في الفراغ المليء ، ثم ينحني أحياناً بسرعة وكأنه يغرف بيده قبضة من الهواء يدسها داخل جبته، أو يخبئها تحت طر بوش لا يرتديه إلا أمثاله من المجانين ۰ و بينما هو ينقل خطاه بـسرعـة إذ بـه يـتوقف فجأة، فيخيل إليك بأنه اصطدم بجدار، ثم ينزع الطر بوش عن رأسه بحـركـة عـصـبية و يضرب به الأرض ساباً باشمئزاز ظاهر، ويجري قليلا وهو يقهقه بصوت مجـلـجـل، ثم يـتوقف عن الجري والضحك في وقت واحد و يعود أدراجه ليلتقط الطر بوش مـن عـلـى الارض بتأثر، و يضعه على رأسه رافعاً الجبة فوقه فلا تبين إلا عيناه المتراقصتان داخـل محـجـريهما ، و يـعـود إلى الجري من جديد دون أن يلتفت إلى يمين أو يسار ثم ينحني بـتـشنج ظاهر ليلتقط حجراً كبيراً يقذفه بعنف باتجاه الحدود و يلحق به ليتأكد من اصابته الهدف ۰

وفـي كـل عرض يقوم به لا تبين الراحة على وجهه إلا عندما يحيط به الأطفال ، فيلوّن بـعـض الوميض عينيه المطفأتين ، وتملأ الابتسامة وجهه المنتفخ المجدور، و يأخذ بالرقص والغناء غير مبال بجبته الذاهبة قطعاً بين أيديهم ، وفي كل مرة تتعرض فيها القر ية للقصف الآتـي مـن الارض المحـتـلة ، يغدو كوخه الحصين ملجأً لمن لم يستطع ، من الاطفال الاحتماء في حضن أمه ۰

وإذا صـادف ومـررت قـرب كـوخـه، ستجد جدار ين، أو بقية من جدار ين سميكين كانا جزءاً من مقام لأحد الأولياء الأبرار، اندثر هو الآخر، مع اندثار الإيمان ۰ وإذا تأملت السقف جيداً تبينت قطعاً معدنية غير واضحة المعالم غطيت جميعها بقطع من الحصير المهترئ والـطين المـكثف ، ومن طرفي الزاو ية تتدلى قطعتان سميكتان من الخيش تدلان على أن وراءهـمـا إحسان تاجر الحبوب في القر ية ، وأما الأثاث فاصناف عجيبة من الخرق البالية وعـلـب الـتـنـك الـصـدئة ، وأوكار لا تحصى للبراغيث وسائر انواع الهوام الأليفة وفي أحد جـداري الـزاو يـة المـطل على الطر يق فتحة صغيرة مر بعة الشكل يطل منها بوجهه المنتفخ ليلتقط من المارة بعض الحسنات أو بعض الصفعات ۰

و يزعم بعض عقلاء القر ية في أسمارهم، خاصه في مواسم الخوف، بأن كوخ «خدك أحمر» يغدو بعد منتصف كل ليلة، منتدى لجماعة الجن من سكان المنطقة، حيث يتباحثون في شؤون عالمهم، و يتبادلون الخبرات في الطرق الناجعة لكسب صداقة الأنس أو الكيد لهم، ثم ينطلقون بعد ذلك إلى الرقص والغناء بصخب جنوني عارم، فلا يسمع أو يرى منهم سوى صاحبهم الانسي ذلك الخائن لجنسه، فإذا مررت في الساعات المتأخرة من الليل قرب كوخه، أمكنك أن تسمع حديثه غير المفهوم، وإذا تجرأت واقتر بت منه فسترى حركات يديه ورأسه وتمتمات شفتيه ممايدفعك إلى الهرب مرعوباً مبسملا • ومن الناس من يزعم حالفاً بأغلظ الإيمان، بأن لخدك أحمر زوجة أو عشيقة من عرائس الجن ليس لجمالها مثيل بين نساء القر ية، و يرى المراهقون من الصبيان والبنات، أن انتفاخ وجهه على هذا الشكل العجيب هو بسبب قبلاتها الجنونية •

ولكن حدثا هاما طرأ على القر ية، أبطل جميع هذه المزاعم دفعة واحدة، فقد وفدت، ذات يوم، امرأة بائسة مستعطية، وسرعان ما اكتشف الناس بذكائهم، وبما بدا من تلك المرأة من حركات وتصرفات معينة، بأنها، هي الأخرى، على قدر من الجنون لا بأس به، وقد جاءت من قر ية ملاصقة للحدود مع الأرض المحتلة، ربما لأنها خافت أن تجد نفسها مكرهة يوما على أن تمد يدها لعدو، أو لأن المحسنين هر بوا من القصف، أو لأن في تلك القر ية منافسا أو منافسة لها، ولما كان من الصعب أن تحتمل قر ية واحدة أكثر من مجنون واحد، فقد توهمت المسكينة أن هذه القر ية لا مجنون لها، فسعت إلى ملء الفراغ •

وأيا كانت الأسباب التي حملتها على المجئ، فإن «أحمر» لم يجد في قدومها ما يضايقه، لأن جنونها ـــ على ما يبدو ـــ مز يف، وما الحقيقي إلا جنونه هو، وكثيرا ما كان يلتقي بها أمام بعض المنازل أو في الطر يق فينظر إليها نظرة إشفاق مقرونة بشيء من التعالي • ومع مرور الأيام وكثره اللقاءات العفو ية أصبح يشعر نحوها ببعض المودة البر يئة، و يود بكل تعفف لو تبادله الكلام، ولكن «حواء» وهو اسم القادمة الجديدة،

كانت تنفر منه بازدراء وتتجنب الالتقاء به، لانه مجنون جداً وقذر جداً أما هو فما كان يبالي بمشاعرها نحوه، فاستمر يتتبعها، ويهش لها، ويحدثها بلسان المجانين تارة، و بلسان العقلاء تارة أخرى، ولكن ذلك كله لم يمكن «خدك أحمر» من أن يقد لصمت حواء قميصا.

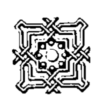
وألهب الصدود العنيد والمستمر شوقه، فلم يعد باستطاعته الابتعاد عن حواء، واختصر عروضه اليومية في ساحة القرية ثم أهملها، ولم يعد ميالاً إلى الرقص والغناء وسط حلقات الأطفال، فهو دائما يسير في إثرها غير مبال بجفائها واحتقارها له، وشوهد «خدك أحمر» صبيحة يوم مشرق، يسير في طريق القرية الرئيسي متمايلاً وحواء تسير أمامه، على بعد أمتار دون أن تلتفت إليه أو تعيره انتباها، وكان بين الفينة والفينة يطلق ضحكة صاخبة ثم يعود إلى سابق وقاره وعيناه منجذبتان دائماً باتجاهها، ففي قدها المتمايل، رغم الشقاء، مثال للرشاقة التي يندر وجودها بين جميع عرائس الجن اللواتي عرفهن، وتخيل عريها الشهي، وعجب لماذا لا يكون نهدا المرأة في ظهرها؟ ولماذا وضعت العينان في جهة واحدة من الرأس، وخيّل إليه وهو في عباب التأملات أن خاصرة حواء تبين من شق في ثوبها، فانفجر شوقه المكبوت، وعاد إليه تعقله، فانقض عليها كالسهم آخذا بكتفيها ثم أدار وجهها نحوه بعنف، وانطلق يقبلها حيثما وقعت شفتاه، و يضمها إلى صدره، و يعضها، كل ذلك وسط الطريق، غير عابىء بصياحها الحاد، و بأظافرها وأسنانها الغارزة في لحمه، ولم تستطع حواء الإفلات منه إلا بعد أن تراكض الناس من كل صوب وانهالوا عليه لكماً ورفساً من كل جانب وسط الضحك وصيحات الاستنكار، فانطلق «خدك أحمر» يجري مالئاً القرية بعواء هستيري، لا هو بالضحك ولا هو بالبكاء، وإن كان يخيّل إليك أنه الأمران معاً، ولم ينقطع عن الصياح إلا بعد أن انتهى إلى معقله فانزوى فيه واستسلم لنشيج صامت.

ووجدت القرية بأسرها في الحادثة مادة للتندر والتسلية أنستها طوال النهار، وطأة الخوف من مواعيد القصف المدفعي وفيما كان الناس منصرفين إلى التفنن في سرد

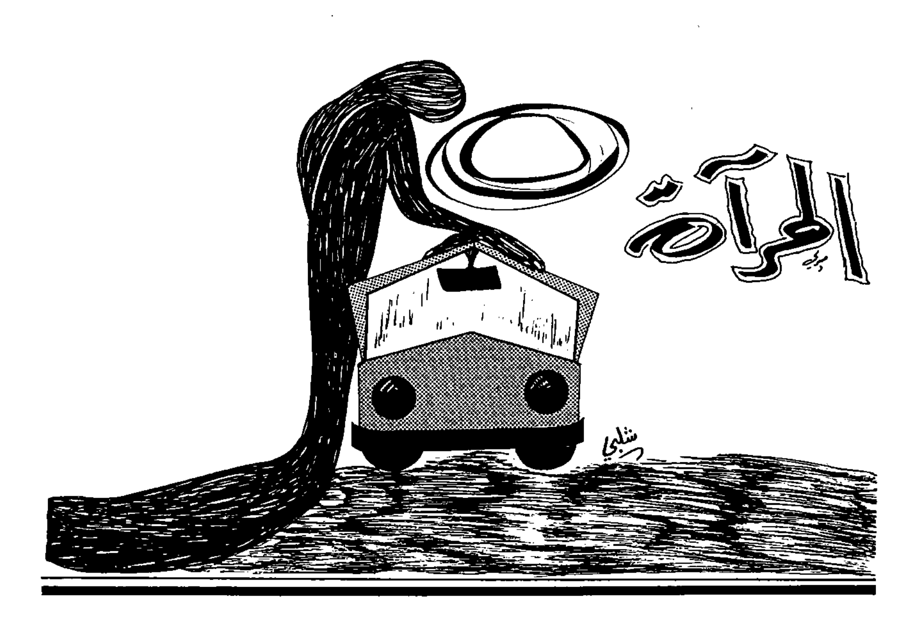
التفاصيل المثيرة، وفيما كان بعضهم يتمنى في قرارة نفسه لو يتاح له ما أتيح لخدك أحمر، ولو بدافع الجنون، كان شيء آخر يجري بهدوء تحت كثافة الظلمة وكثافة الخوف.

فعند المساء، حيث ينزوي سكان القرية في الجحور الآمنة من منازلهم وأكواخهم، في وقت مبكر، كان «خدك أحمر» قابعاً في كوخه يتأمل، على ضوء سراجه الأسود الخافت، الأشكال والخطوط المتعرجة التي رسمها بدمه حول جراح يديه وساقيه وصدره، ثم يعود إلى النشيج حيناً وإلى الضحك حينا آخر، وفيما هو على حاله تلك، ارتفعت قطعة الخيش المهترئة ببطء، وبانت له قامة حواء، رآها تبتسم بحنان، نظر إليها طويلا دون أن ينبس أحدهما بكلمة، مد احدى يديه نحوها، فتقدمت منه، أمسك بيدها وأجلسها قبالته وعيناه لا تفارقان وجهها الذي زاده خفوت الضوء جاذبية، وبيد مرتجفة أزاحت أشلاء قميصه عن جراح صدره لتمسح بلسانها آثار الدم، فانطلقت يده بحنو إلى رأسها تداعب الشعر المشعث، وتهبط إلى كتفها، ثم إلى شق الثوب عند خاصرتها. وغمر الشعور بالرضى نفسه وبدا على انتفاخات وجهه، فإذا به يوسع لحواء مكاناً بمحاذاته.

ومنذ اطلالة صباح تلك الليلة، لم يعد أحد من سكان القرية يرى أثرا لهما أو لأحدهما، لا في القرية ولا في القرى المجاورة.






المرآة
شلبي



المرآة

كان خارجاً لتوه من المقهى الباريسي الأنيق، ساعتان كاملتان من الجلوس المرهق، استنفد خلالها، جميع محتويات الجريدة الفرنسية المسائية، واستعرض للمرة الألف، جميع ما مر به عبر السنوات الأخيرة، وفكّر طويلا، بما ينبغي أن يفعله في المستقبل. نظر حواليه بسأم ظاهر ثم اتجه شمالا دون أن يحدد لاتجاهه هدفاً معيناً. شارع الشانز يليزيه غاص بالسيارات وبالمشاة كعادته مساء كل يوم. المسلة المصرية في الطرف الجنوبي للشارع لا تبدو للعين بوضوح. من المفروض ـــ حسب منطق الزمن ـــ أن النهار قد انتهى أجله منذ أكثر من ساعة، ولكن النور ما زال يتشبث بالأفق الواسع باسطاً على المدينة لوناً من الظلمة المضيئة، فبدا الوقت هجيناً، لا هو بالنهار فيفصح، ولا هو بالليل فيعتم، سيتناول عشاءً خفيفاً.

بحث في ذاكرته عن عنوان مطعم من المطاعم التي اعتاد التردد إليها. رصيف الشارع يضيق، رغم اتساعه، بهذا السيل البشري المتزايد مع تزايد الظلمة، سعر الدولار مستمر بالهبوط على نحو مقلق. بماذا تفكر هذه الأعداد الغفيرة من البشر؟ ولماذا يتهالك الجميع على هذا الشارع بالذات؟ وجد نفسه قبالة قوس النصر، وقف يتأمل النقوش كأنما يراها للمرة الأولى، طريقة الإضاءة تضفي على هذه النقوش الضخمة جواً من المهابة الحزينة. لو أنه تعامل مع الذهب بدل الدولار، لحقق لنفسه أرباحاً هامة. استدار ببطء ممتعضاً من نفسه. مع تقدم السن تضعف روح المغامرة. اتجه جنوباً. المنزل موحش لمن يعيش متوحداً. الشقة التي اشتراها في باريس تضاعف سعرها مرتين في أقل من أربع سنوات. كان راتبه الشهري في بيروت يتبخر قبل انتصاف الشهر. معظم الذين شاركوا

في القتال ونجوا من الموت اغتنوا على نحو أو على آخر. لو أنه اشترى لدى قدومه شقتين، بدل واحدة، لكان يملك الآن شقة بالمجان. لقد أغرته الفائدة المصرفية الكبيرة على الدولار الأميركي. لن يستمر تدهور سعر الدولار طويلا. هذا ما يحدث دائما عندما يحين موعد تسديد ثمن البترول. توقف أمام واجهة محل أنيق للألبسة الرجالية. لا جديد في الأزياء إلا في اختيار الألوان. استهوته بدلة رمادية اللون مع ربطة عنق حمراء. قال لنفسه: سأعود غداً. وفي اللحظة التي استدار فيها ليستأنف سيره رآه قبالته تماماً، وجهاً لوجه وعلى وشك أن يصطدم به: عينان واسعتان، شعر كثّ، كتفان عريضتان وقامة متطاولة. ظنه واحداً من رواد الشانزيليزيه المتسكعين، وعندما تحرك ليتجاوزه أبصر بشفتي الرجل تنفرجان لتخرج من بينهما كلمة واحدة حادة النبرة:

ــ سأقتلك!

ظن نفسه في حلم أو ما يشبه الحلم، وارتسمت في ذهنه صور شتى، التفت إلى الوراء بسرعة ليرى إذا ما كان المخاطب رجلا سواه، فلم يجد أحداً، فعاد يلتفت بخوف وتأهب غريزي، نحو مصدر التهديد، فإذا بالرجل قد اختفى تماماً، فراح يدور على نفسه متطلعاً في جميع الاتجاهات: عشرات من الوجوه المغلقة، عشاق يتظاهرون بالهيام، جانحات يبحثن عن طريدة، غلمان متبرجون محشورون داخل سراويل بالغة الضيق، سيارات لا حصر لعددها تسير ببطء أنوار ملونة بدأت تسطع في جنبات الشارع. حاول أن يستعيد صفاء ذهنه. إنه تهديد صريح بالقتل، لم يتبين معالم الوجه بدقة، لقد أفقدته المفاجأة حسن التصرف. فكّر بالعودة إلى المقهى. لا شك أن الرجل في مكمن قريب يتحيّن الفرصة الملائمة للانقضاض. إنّ العودة إلى المنزل في مثل هذه الحالة، هي أفضل شيء. لكم يبدو الحد الفاصل بين الحياة والموت واهياً. كان يصرخ برفاقه عند الحواجز الطارئة مؤنباً: «لا تهدروا الوقت بطرح الأسئلة». بعض الرؤوس كانت تتشبث بأجساد أصحابها ممتنعة على الحد المرهف العريض. يجب أن يعود إلى المنزل بأسرع وقت. أروقة «المترو» البارسي تتيح فرصاً مثالية للقتل. كان ينبغي أن يتمالك نفسه أمام المفاجأة.

سيارات الأجرة وسط الشارع بين اتجاهي السير. إن أثمن عون تقدمه للقاتل هو شعورك بالخوف منه. السير يتوقف عند الإشارة الكهربائية الحمراء، يتقدم المارة لقطع الشارع متزاحمين. تلفت حواليه بعصبية واتجه مسرعاً إلى أول سيارة أجرة. استقر في المقعد الخلفي وهو يعين للسائق مقصده، السيارة تتحرك ببطء، إنها أشد الفترات زحمة سير. لأول مرة يبدو شارع الشانز يليز به لعينيه قبيحاً. كان التهديد واضحاً لا لبس فيه، وكانت الأحرف نافذة كحد السكين ساحة الكونكورد تتوسطها المسلة المصرية. في هذه الساحة أطاحت الثورة الفرنسية برؤوس أعدائها رجالا ونساء. السيارة تنعطف نحو اليمين وتسير بمحاذاة نهر السين. صوت السائق يرتفع شبيهاً بالعواء:

ـــ طقس باريس رائع اليوم، ليته يطول قليلا!

كانت العينان الواسعتان تحدقان به بتركيز مخيف. كيف اختفى صاحبهما بتلك السرعة المريبة؟. تنبه إلى أن السائق قال شيئاً ما. مياه النهر تعكس الأضواء المتلألئة على الشاطئين على نحو صارخ. عشرات المرات تعرض إبّان معارك الأسواق التجارية في بيروت لموت مؤكد، وكان ينجو دائما. السائق يستعيد اسم الشارع ورقم البناء، أجابه بصوت جاف، جميع إشارات المرور تغدو ـــ لدى اقتراب السيارة منها ـــ حمراء. الصداع يجتاح رأسه. لماذا اختار باريس بالذات؟ السيارة تنعطف نحو اليمين ثانية وتوغل في الشوارع الخلفية. كان انفراج الشفتين شبيهاً بانفغار جرح متعفن. حرب التصفيات الهادئة أشد هولا من الحرب المحتدمة الدوّار. كانت العينان تفيضان، على مدى اتساعهما، بحقد أسود، وكانت نبرة الصوت شبيهة بالفحيح. السيارة تبطئ والسائق يتطاول برأسه نحو الأمام بحثاً عن الرقم. أحس مع توقف السيارة بتوقف نبضات قلبه. الشارع مقفر تماماً. صفان متلاصقان من السيارات الجامدة على جانبيه. المدن الكبيرة تتحول مع الليل إلى ما يشبه الغابة. المصعد يبطيء في هبوطه وصعوده. أروقة العمارات أكثر وحشة من المترو، فتح الباب بيد مرتجفة، أضاء جميع مصابيح الشقة بعد أن أغلق

الباب الخارجي بإحكام. ارتمى على أول مقعد وأخذ رأسه بين يديه: جلسة المقهى الطويلة، الشارع الرحب المكتظ بالبشر و بالسيارات، قوس النصر وسط ساحة الإيتوال، المحلات الأنيقة المضاءة، البدلة الرمادية وربطة العنق الحمراء، انتصاب الموت قبالته واختفاؤه بلمحة عين. كان على يقين يوم عزم على النفاذ بجلده وبما اجتمع لديه من مال أنه بصدد دفن الماضي ودفن الحنين نهائياً. وطأة الصداع تشتد. أدار مفتاح التلفزيون الملون، همسات، تنهدات متلاحقة، الصورة تهتز ثم تستقر ثم تتضح: فصل غرامي، تتمة فصل غرامي، حبات العرق تلمع وتنزلق فوق الجسدين العاريين. لم يكن وحده المسؤول عن كل ما حدث لوطنه، ولم يكن وحيدا في ممارسة القتل لسبب ولغير سبب، كان القتل هو الخبز اليومي للجميع، بدأ قضية أو شبه قضية، ثم أصبح هواية، وانتهى عادة ملحة كالتدخين أو ممارسة الجنس. خلع ثيابه وألقى بها على المقعد. بحث عن البيجاما فلم يجدها. الفرحة المزمنة تتحرك في جوفه، يجب تهدئتها ببعض الطعام، توجه نحو المطبخ، لا يشعر بأية رغبة في الطعام، شرب كوباً من العصير. لقد أخطأ بتصرفه أمام المفاجأة، الصداع الحاد يتجمع في مؤخرة الرأس. تفقد النوافذ واحدة تلو الأخرى. عاد يبحث عن البيجاما فلم يجد لها أثراً. ما من شيء أشد وطأة على النفس من فكرة الموت في الغربة. كانت حركة الشفتين تدل على تصميم ثابت، جميع خلايا جسده ترتجف. لماذا لم ينفذ الرجل تهديده في حينه؟ جميع مواطنيه يعودون الآن، بعد حفلات التقتيل، مواطنين مثاليين يتحدثون عن التآلف والوفاق. ارتمى على المقعد من جديد. تنبه إلى أنه مازال في ثيابه الداخلية. صرفته حدة الصداع عن التفكير بالبيجاما. هب واقفاً. الرغبة بالتقيؤ تستبد به، اتجه نحو غرفة الحمام مسرعاً. إنها القرحة. فتح حنفية الماء البارد وأحنى برأسه تحتها، وطأة الصداع تخف قليلا، اعتصر رأسه بكلتا يديه. استمر منحنياً فوق المغسلة بضع لحظات. تذكر أن البيجاما مطوية تحت مخدة سريره. الرغبة بالتقيؤ تشتد مع سريان رعشة باردة في جميع أطرافه، خيِّل إليه أنه يسمع التهديد ذاته، بدأ همساً رهيباً ثم تحول إلى صراخ حاد، وعندما ارتفع برأسه و يديه، مرعوباً، قبالة المرآة، طالعته صورة رأس مضرج بالدم وعينين مبقورتين وعنق محزوز، وقبل أن ينفجر صراخه كان قد ارتمى فوق أرض الحمام دون حراك.


السنديانة
شلبي



السنديانة

(إلى الصامدين، بعناد، في الجنوب اللبناني) .

كلما تغابى الصخر وعض على جذع السنديانة الهرمة تحطمت أنيابه ولكن مختار الضيعة، وقد أفاق من نومه على الجلبة الصامتة، ادثر بالليل و بالقلق وخرج من منزله مستطلعاً، وعندما فوجىء بقرارنا بالمقاومة، كاد أن يخرج من جلده، فراح يضرب يداً على جبينه، و يطلق اليد الثانية في الهواء، وهو يصرخ فينا بعينيه وأنفه ولسانه:

ـــ هل جننتم؟!

وحكاية السنديانة الهرمة مع الجن قديمة جداً. يزعم بعض سكان القرية، من الطاعنين بالسن و بالخبرة، وهم يقسمون بالله و بأنبيائه و بالأئمة جميعاً، أن السنديانة تغدو، بعد منتصف كل ليلة، منتدى حافلاً لجماعة الجن، وكان العشاق من شباب القرية وشاباتها يحتمون، في اللقاءات الليلية تحت السنديانة، بالجن، من أعين العاذلين والوشاة. وثمة من يذهب في زعمه بعيدا فيذكر بلهجة الواثق، أنه كان لبعض الإنس عشاق وعشيقات من الجن.

وعندما اشتد موسم الخوف، وشاع الخذلان، هجرت الجن السنديانة وهجرها العشاق، ولكن النساء العواقر داومن على زيارتها سرا، يتمسحن بجذعها الفحل أملاً

بـالإخـصاب • عجائز القرية ، وموئل أسرارها ، يرددن كلما أُتي على ذكر السنديانة ، بأنها بـاقـيـة مـن عـهـد نوح ، لذلك انفردت بين سائر أشجار القرية ـــ قديمها وحديثها ـــ بمسحة خـاصـة مـن القداسة ، وعندما حاول عساكر الاتراك قطع بعض أغصانها لاستعمالها وقودا فـي مـواسم البرد أصيبوا بالجرب • ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح كل من أصيب بالجرب من أبناء القرية ، يتداوى ـــ من مرضه الأليف ـــ بورقها المغلي مع الماء •

وفـي كـل مـرة تـتـعـرض فيهـا الـقـريـة للقصف ، يأبى معظم شيوخها نساء ورجالاً ، النزوح ، و يقول قائلهم باطمئنان:

ـــ أما أنا فباق مع السنديانة ، الحجر في مطرحه قنطار، ومن لا أرض له لا كرامة له •

واسـتـمر المختار يؤكد لنا ـــ وهو دامع العين من وطأة النعاس والخوف ـــ بأن العدو لئيم غـشـوم ، وأنـه شديد الانتقام ، وأن ثمن التهور سيعود على القرية بأشد الويلات • وأن من ليس له كبير ليس له تدبير، وأن العين لا تقاوم ••

ـــ •• «وأنت•• خذ لك موقعاً قرب السنديانة» .
ولم يـزد الـقـائـل حـرفا ، وما كنت بحاجة إلى إيضاح ، فانطلقت متشبثاً بسلاحي ، قبل أن يصل المختار بحديثه الباكي إلى «المخرز» •

الأرض حـول جذع السنديانه ليست ترابية ، وليست صخرية ، إنما هي نسيج صلد من جـذر مفولذ ومن صخر• عندما أسندت ظهري إلى الجذع ، شعرت بأنني قادر على تحريك الكون•

عاد المختار إلى منزله ، بعد خلو الساحة من المسلمين القلائل ، وكان خوفه يتعاظهم مع كل خطوة كأنه سائر نحو الجحيم •

ـــ لا يقبل على الموت بهذا الشكل المتهور إلا من فقد عقله ٠

ثم توقف ، واستدار ببطء ثقيل وهو يسائل نفسه عن عدد القتلى الذين سيشترك بتشييعهم ، وعن عدد المنازل التي سيقوم بتقدير الأضرار التي لحقت بها ، ومن يدري فقد يتطور الأمر إلى ما هو أشد هولاً وأبعد خطراً ، لذلك لم يستطع بعد وصوله إلى المنزل ، نوماً ، فنهر زوجته بعصبية لتنهض وتعد له الشاي ٠

عندما قصف العدو القرية ـــ منذ سنة ـــ بمدافعه البعيدة المرمى ، تهدمت خمسة منازل وقتل طفل وامرأتان ، وسقطت قذيفة فوق السنديانة فأحرقت بعض أغصانها ، وتركت في هيكلها فجوة أخلت بتناسقه ، ولدى مرور موكب الشهداء المتواضع قرب السنديانة باتجاه مقبرة القرية ، نظر المشيعون إلى الأغصان المحترقة فنسوا حزنهم ، وبعد أقل من سنة عالجت السنديانة جراحها بنفسها فعاد هيكلها إلى الامتلاء ، وبقيت بعض أغصانها متشحة بالسواد لفترة طويلة ٠

ـــ ٠٠ «سنقاوم هذه المرة بكل ما لدينا من قوة ، كل الدلائل تشير إلى أن تحركات دوريات العدو تخفى عدواناً اكيداً» .

المسافة بين السنديانة ، وحدود الأرض المحتلة هي المسافة بين ضفتي الجرح ٠

قلت لنفسي أسليها ، وأنا اعانق الرشاش بشغف:

ـــ لو تهبط إليَّ إحدى عرائس الجن ٠٠

كان الهواء منعشاً على نحو ما عهدت مثله من قبل ، أضواء النجوم البعيدة تتراقص في الأفق بنشوة ، بعض النجوم اللعوب تهبط وتختبىء بين أوراق السنديانة وتلاعب نظري ٠ الحفيف الهامس يصل إلى سمعي كأنه تنهد العشاق ٠ هي ذي أرضي ، تعتصر الصخر وتسقي ، ما أقرب نفسي الليلة من نفسها ، أشعر بجسمي يلتحم مع الجذع في عناق أبدي ٠

الليل يتحرك ببطء. في صدري تستقر عظمة الوجود. تقدمي ياقطعان الليل، لن تموت شتلات التبغ هذه المرة، مجانا، لابد من مسيل الدم،الظلمة ترفع اذيالها بخفر عن الوادي. إنهم هنا، هنا على بعد خطوات، و يدوي الغضب كانفلاق الرعد، وتربت أغصان السنديانة، برفق، على كتفي. وتتحول شتلات التبغ الطرية إلى حراب مغروزة في الأرض، رائعة كانت المفاجأة بعد أن ألفت أقدامهم المرتقى السهل. إنهم يحتمون بأقفيتهم، جراحهم تنزف رعبا أشد سواداً من الليل، الطلقات تتبعد باتجاه الحدود. والمختار يغادر منزله مهرولاً وهو في حيرة من أمره.

ــ .. «لقد هربوا والله».

ــ .. «قبعتان وثلاث بنادق».

الدهشة تستبد بالمختار فتعقل لسانه و يديه.

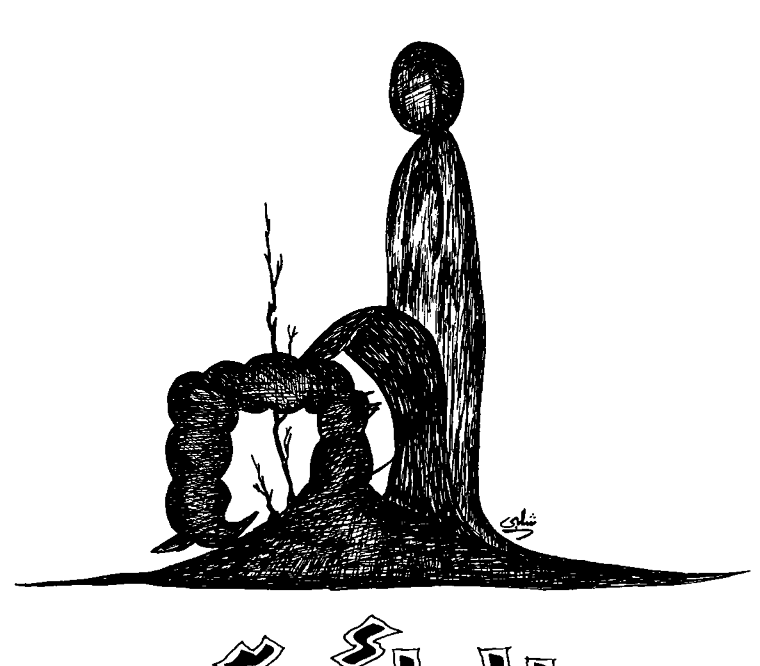
ــ .. «استشهد منا إثنان».

ــ .. «ربما عادوا بعد قليل».

الصبح يتنفس، عصافير السنديانة تضاحك الجن، اللفح الدافيء مازال ينبعث من فوهة الرشاش. الجذع الصلب يلين لظهري، ثمة شيء جديد يولد مع الصباح، الأرض الغرثى تعرف، لأول مرة، معنى الري فتستفيق على شميم الجراح النازفة وتتبرج للفجر المطل.

و يستعيد المختار لسانه وشبابه، فيضرب الجذع الفحل بطربوشه الداكن و يصيح كالطفل:

ــ ليعودوا، ليعودوا متى شاؤوا، فقد قتلنا الليلة الخوف. ورأيت الجذع الفحل يتفرع إلى غابة غطت بأشجارها مساحة الجرح بأسرها.



الزائدة



النزائة

يتركز الوجع حينا في أسفل بطنك باتجاه اليمين فيصبح قو يا لا يطاق . و يتبعثر حينا آخر فيغطي مساحة واسعة من البطن فتخف وطأته قليلا ، وقد يحلو له أن يصعد إلى اعلى الصدر فتشعر بالضيق مع رغبة مكروهة بالتقيؤ .

و يطبق عليك الليل ممطراً عاصفاً فيز يد احساسك بالوحشة والألم ، وتتباطأ عقارب الساعة في حركتها . ودنيا مقفرة، ومنزل مظلم، ونفس مرهقة ، بل نفسان مرهقتان، فكل كائن منا يحمل نفسه وغريمتها ، والسنة الثامنة عشرة من قيامك بوظيفة التعليم قد بدأت منذ فترة .

وشهادة الحقوق المعلقة فوق طاولتك يبهت لونها و يبوخ خطها الأنيق. لم تعد تنفع حتى لتز ين الجدار. ستموت وفي نفسك أشياء من شهادة « البكالور يا » ، فقد هددت الملعونة ما كنت تأمل فيه خيراً من عمرك ، وأصابتك عنة اللغة الفرنسية ، فلم تستطع أن تقد لها قميصا وأن تبصق في وجه جهابذة التر بية الذين يفرضونها عليك فرضا بعد تحصينها بالعلامة اللاغية ، فانصرفت عنها انصراف الثعلب عن العنب المدلى عاليا ، لتصبح معلماً ، ثم مديراً واصبحت ذا صولة .

غزارة المطر تزداد فوق الأرض المعجونة بخميرة الفقر ، والعاصفة تشتد ، ومن خلال زجاج النافذة المضمد تتراقص أمام عينيك وأمام حسرتك الذليلة أضواء المستعمرات

الإسرائيلية، فتحرك فتيل سراجك.

قر يتك بحاجة إليك، والجنوب بحاجة إليك، بدأت في قر يتك معلماً، وستستمر فيها معلماً، وفيها ستموت متقاعداً، والحياة كلها عرض زائل، وأما الز بد فيذهب جفاء.

والمدرسة تتضخم باستمرار، و بطون النساء تخصب بغزارة لتملأ مجاري الفقر، وتشبع نهم الأو بئة، وتمد جيوش الرفض. والمرأة شر كلها.

وترامي إليك وأنت تعاني من حسرة «البكالور يا»، أن كوة أمل عر يضة قد انفتحت عبر الحدود، فأسرعت ونجحت بسهولة فلبطت نظام التعليم في وطنك، وأسرجت خيلك للعلى فأخترت دراسة الحقوق.

واشتدت قبضتك على المحاضرات.

وتراخت على جرس المدرسة.

ونائب المنطقة راض منك، فلك في المناسبات من قوة بيانك مدد، ثم ز ودتك دراسة القانون بالحجة، يتواضع في المواسم الانتخابية فيدعوك أستاذا، ويمازحك بين المواسم فيدعوك «ابن الخبيثة» و يضحك، وتضحك، و يضحك الحاضرون.

لقد نيفت على الأر بعين، ونيفت إسرائيل على العشر ين.

لم يبق لك إلا اجترار المرارة، واستجداء الدفء من موقد لا يعرف جمره الصمود.

من أين جاءتك الزائدة؟ ولماذا التهبت؟ وكيف نبتت تلك القرى الجميلة، والبساتين الغناء عبر الحدود؟

وأولو الأمر راضون.

موظف الأمن العام يبارك وطنيتك بشدة، وقد يترجم بركته نقداً في بعض الحالات.

ولمفتش التعليم في كل زيارة تفقدية كيس كبير من السماد الحيواني لبستان التفاح الذي يملكه في الجبل.

وكل دركي يأتي إلى مخفر القرية يصطفيك صديقا ونديماً، لأن استقلالك بالمسكن أمر هام.

عندما حصلت على شهادة الحقوق حملتها مزهوا وهرولت إلى النائب تستجديه خلاصا، أي خلاص، إما بتغيير الوظيفة وإما بنقلك إلى المدينة، وإما بأي شيء يرتأيه هو صالحا لك، وعندما توقفت عن الكلام مرتبكاً رمقك بازدراء كأنك جرذ مريض، ثم ابتسم لك ابتسامة عفنة ووعدك خيراً.

أما يكفيك يا ابن الكذا والكذا ما أنت فيه: وظيفة، وراتب، وربطة عنق، وصولة، وخاتم رسمي؟

أنسيت القمل والجرب؟

«كل واحد يفلي رأس رفيقه»، هكذا كان يصرخ بكم المعلم، فتستدير منكم حلقة مغلقة، وتنطلق الأصابع الجرباء تبحث بحماس، وتتوالى صيحات الظفر، والشمس ربيعية دافئة، والحقول موشاة بالزهر البري المتراقص، والجنائن تمتد في سهل الحولة وتتسلق الروابي والتلال.

أربعون سنة مرت من عمرك الجديب.

هباء كان سهر الليالي الطوال.

لو أنك تزوجت....

كريمة كانت وحدها القادرة على اعطاء حياتك معنى، لقد كان الزواج، في نظرك

عبئاً ثقيلاً، وطريق الطموح يحتاج إلى الحرية وخفة التحرك، ثم أن يتزوج المرء وهو في أسفل السلم غير أن يتزوج وهو في زحفه المظفر نحو القمة.

والمطر لا ينقطع، والعاصفة لا تهدأ، ووجع الزائدة لا يخف، والإذاعات العربية لا تصمت، وجمر الموقد لا يصمد، وسنوات الحسم تتوالى، وهذا الشاي يكاد يضيء.

وأنت وحدك بلا ماض، ولا حاضر، ولا غد، ونظام الكون يضغط على صدرك، والزائدة تنذرك بشرها، وتلاميذك يتدربون على السلاح، وشهادة الحقوق تكاد تقتلك بخطها الأنيق.

ما أشهى الزوجة في مثل هذه الليلة.

ولكن كيف تقدمت الحدود الإسرائيلية حتى غدت ملاصقة للطريق مباشرة؟ وكيف تبخرت المنطقة الحرام المفترض فيها أن تفصل بيننا وبين العدو؟ كانت ثمار أشجار التين والزيتون تنضج في موسمها من كل عام ثم تذوي وتتساقط دون أن يجرؤ الزارعون على قطفها. وتنضج أعمارنا وتذوي وتتساقط دون أن نتمكن من الاستفادة منها، أو إفادة الوجود بها، وفي غفلة من الزمن ماتت تلك الأشجار، ماتت وحدها دون حماية ودون سياج، وماتت معها العصافير التي رافقت طفولتنا.

والمطر لا يريد أن يتوقف، والإذاعات تأبى إلا أن تقنعك بأن الهزيمة تحولت إلى نصر، وأن موعد الحسم آت لا ريب فيه. والنشرة الجوية من إذاعة العدو تتكلم عن احتمال تساقط الثلوج في المناطق الشمالية، أما درجة الحرارة في هضبة الجولان فتراوح بين الصفر وثلاث درجات تحت الصفر.

.. وإذا لم تستطع الحكومة اللبنانية القضاء على أوكار المخربين فوق أراضيها فإن باع جيش الدفاع الإسرائيلي طويل جداً.

والمطر لا ينقطع، وسراجك يشح زيته، والغثيان يقبض على أنفاسك بقوة، والنائب يستمر بمزاحمتك على طريقته الخاصة، ومياه نهر الليطاني حولت لتخفف من ملوحة البحر في الجهة الأخرى، والمنسوب اللازم لري الجنوب لا يهتدي إليه، ونغمة الحسم لا تهدأ، وباع جيش الدفاع الإسرائيلي يطول، والأرحام تخصب، والمدرسة تكبر، وتؤلف ولا تؤلفان.

أين كريمة الآن؟

لقد منعك طلاب العلى عن الزواج فبقيت ناقص الدين.

... وفي النشرة طائفة أخرى من الأخبار.

المسؤولون يعتذرون، نظراً للحالة الراهنة، عن تقبل التهاني بعيد الفطر السعيد نظراً للأوضاع الراهنة، لكنهم لا ينسون توجيه عبارات التقدير إلى أبناء الجنوب على صمودهم وموتهم بهدوء.

لم يبق سوى أيام معدودات من شهر رمضان.

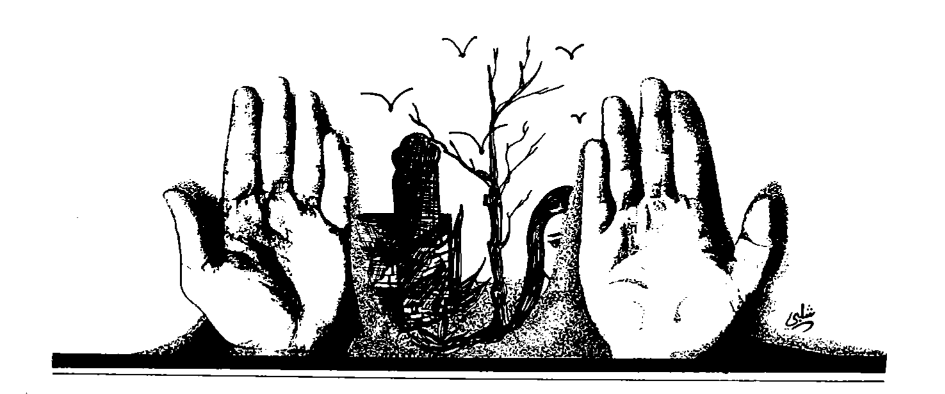
ولكن الزائدة الملعونة لم تتحرك الآن؟ لعله الشاي، إياك أن تدع الشاي يغلي مع الماء فذلك يفسد نكهته، ويأبى الشيخ إلا أن يخرج الحروف من مخارجها.

لو أنك تزوجت...

لو أن العمر يعود بك عشر سنوات فقط إلى الوراء، لو أن اللغة الفرنسية لم تكن سبب إخفاقك، لو أن النائب يفي بوعد، لو تنفتح الحدود جنوبا، لو تخرس الإذاعات عن الهذر، لو تلغى الظروف الإستثنائية، لو تأتي كريمة لبضع دقائق، لو تنفجر هذه الملعونة المتدلية في أسفل البطن وتريحك.




ثرثرة المقابر





ثرثرة المقابر

ينحط النعش الخشبي على الأرض أمام مدخل المقبرة الرحب، تتحرك الشفاه الجافة بكسل لتلاوة الفاتحة، يرتفع من بين المشيعين صوت حاد خال من نبرة الإيمان:

ــ اعتبروا اعتبروا، ولمثل هذا فانتظروا، يرحمكم الله..
تلسع أشعة الشمس عري الرؤوس، وتنساب قطرات لزجة من العرق على الوجوه والأجسام المتعبة.

يدخل النعش حرم المقبرة ببطء، و يتهيأ أر بعون مؤمنا للصلاة على الميت، في هذا الا ثناء يتدافع المشيعون بحثا عن الظل، وتوفر أشجار المقبرة الوارفة أماكن للجميع، تبحلق العيون المطفأة في خطوط الشواهد:

يا زائري لا تنسني ... من دعوات صالحه
فابسط يديك إلى السما ... وأقرأ لروحي «الفاتحه»

ــ شحاذون في الحياة وفي الموت، قال الأول.
ــ من عاش على شيء مات عليه، علق الثاني.
ــ لقد بكروا في موعد الدفن، تأفف الثالث.
ــ خير الميت دفنه، قال أحد الثلاثة.
ــ وخير الأحياء؟ قال الرابع ساخراً.
ــ حرقهم بحر الظهيرة.

ـ ٠٠ «لا تدوسوا شواهد القبور باقدامكم ٠٠ فتأثموا» .
ـ ضاقت المقبرة بنزلائها .
ـ أليس حرق الجثث بأفضل من دفنها ؟

يشتد الحر كأن الزمن يسير القهقرى، أعالي الأشجار ساكنة كأسافلها، يرتفع التأفف هنا وهناك، كأنه فحيح القبور، وتبدو شواهد القبور، باناقة خطها اكثر إفصاحاً من الوجوه٠

ـ عسى ألا تطول الصلاة على المرحوم.
ـ طالت أو قصرت فالمصير معروف .
ـ إن الله غفور رحيم .
ـ ولكن خطايا المرحوم لا تحد .
ـ هل عرفتم كيف مات؟
ـ بالسكتة القلبية؟
ـ لا .
ـ بانفجار الدماغ؟
ـ لا .
ـ بسرطان الثدي ؟
ـ لا .
ـ بالضربة القاضية ؟
ـ مات والله عشقاً .

تختنق الضحكات داخل الصدور، وتتشبث الشمس بموقعها لا تتحرك، فترتفع ثرثرة المشيعين دفعاً للضجر، و يرتفع صراخ فصيح:
ـ ٠٠ «يصول ابن آدم في حياته ويجول، و يعارك ويخاصم، و يغتر بالمال والولد، و يرتكب الموبقات، ويجافي المعروف، و يتكالب على المنصب والجاه، ثم ينتهي في حفرة

ضيقة من الأرض ليغدو طعاماً للدو. . .

ــ . . لو نبحث عن مكان آخر.
ــ سنلتقي بمن هو أسوأ.
ــ . . «سبحان من تعزز بالقدرة والبقاء وقهر عباده بالموت والفناء».
ــ قهرهم بالموت أو بالولادة؟
ــ بدأت الفلسفة تتقيأ.
ــ لم تقل لنا كيف مات ؟

تتقارب الرؤوس الأربعة من بعضها البعض.

ــ تعشى لحما مشويا وكرع زجاجة كبيرة من النبيذ الأحمر. .
ــ في هذا الطقس؟؟
ــ ثم التهم بطيخة باكملها، وكان على أحسن حال شبعا ورياً.
ــ وبعد ذلك ؟؟
ــ طابت نفسه فطلب إحدى زوجتيه.
ــ العتيقة ام الجديدة؟
ــ من تراه يختار مع النبيذ؟
ــ المهم . .
ــ المهم أن الأجل وافاه وهو في قمم السعادة
ــ يعني . . مات . . وهو. . ؟؟
ــ . . وهو يكافح.
ــ لا رده الله.
ــ أفضل من أن يموت تحت القصف العابر.
ــ وكيف تم فك الارتباط ؟

ـ عندما شعرت زوجته بهمود جسمه، أزاحته جانبا وهي تسبه وتسب الموت، ثم ارتدت ثيابها على عجل، وألبسته ثيابه بالمقلوب، وانصرفت عنه وهي تولول عاليا.

ـ ميتة موفقة!

ـ العاقبة لك

ـ .. «لقد فتنتكم الحياة الدنيا وأعمت بصائركم، تتشبثون بالباطل تشبث الطفل الرضيع بثدى أمه. أفسدتكم الأحزاب، وذهبت بريحكم الأهواء، قاتلكم الله من شباب مضيع، تدعون المعرفة وأنتم لا تفقهون من الدين حرفاً واحداً، وتدعون الرجولة وأنتم تتبرجون تبرج العواهر، وتخوضون على أرصفة المقاهي أشد المعارك ضراوة، فاذا أزّت فوق رؤوسكم طائرة انخلعت قلوبكم من الخوف، يا أشباه الرجال ولا رجال، لقد رماكم الله بمن ينكل بكم، وينتهك حرماتكم، ويدنس مقدساتكم، وانتم سادرون في غيكم، غارقون في باطلكم، فما أشبهكم بقوم...».

ـ .. لو يقذفه أحد بحجر على حنكه.

ـ لماذا لا يشترك بالصلاة على الميت؟

ـ لأنه مكفل بالأحياء.

ـ لماذا يستعين الشيخ بمثل هؤلاء؟

ـ لأنهم يفرضون أنفسهم فرضاً.

ـ كم يسيئون إلى الدين..

«.. الفاتحة»

ـ ....

ـ أخيرا انتهت الصلاة.

ـ كيف يقول المصلون: إننا لا نعلم عنه إلاخيرا؟.

ـ لا رحمه الله كم كان فاسقاً.

ـ ما ترك عينا إلا وأبكاها.

ــ ولا خادمة إلا واعتدى عليها .
ــ ولا حقاً إلا وانكره.
ــ كان غنيا ٠ .
ــ بدأ حياته مهرباً إلى يهود فلسطين.
ــ وحماسه للعروبة ؟ .
ــ كحماسك أنت للاشتراكية .
ــ دعك من هذا السخف الآن ٠ ٠ .
ــ ٠ ٠ سيارة أميركية .
ــ ٠ ٠ وموظف كبير في شركة أميركية مستعربة .
ــ ٠ ٠ وزواج على الطريقة الأميركية .
ــ ٠ ٠ وماركسي عند الطلب .
ــ ٠ ٠ وناصري قبل العبور.
ــ ابن حرام يعرف من أين تؤكل الكتف .
ــ ٠ ٠ ٠ .
ــ لقد هرب .
ــ ماذا تنتظرون منه ؟ .
ــ لا تضحكوا بصوت عال فالناس ينظرون باتجاهنا .
ــ ألا ترى الحزن في عيونهم ؟ .
ــ من يقرئه الشهادة ؟ .
ــ ذاك المجنون الذي كان يشتم الأحياء والأموات .
ــ لو يستعيضون عن اقرائه الشهادة بتلاوة برنامج سباق الخيل .
ــ ٠ ٠ لعادت اليه الروح من جديد .
ــ قاتلكم الله ما أقبح ألسنتكم .
ــ أجمل ما في هذه المقبرة أشجارها .
ــ عدنا إلى الشعر.

ـ إنها تغتذي بعصارة الموت .
ـ بئس الغذاء .
ـ أفضل من عصارة الأحياء .
ـ أفضل في حالة واحدة .
ـ . . .

يسمع صوت رجل يردد بتذمر «لا حول ولا قوة إلا بالله» .

ـ لقد فضحتمونا أخزاكم الله .
ـ وهل بقي عليك ستر؟
ـ هل سمعتم حديث العنزة؟
ـ أية عنزة؟
ـ خالتك .
ـ ألن تكف؟
ـ ماذا قالت العنزة ؟

ـ شاهد أحد الرعيان عنزة في قطيعه واقفة كأنها تصلي ، نهرها فلم تتحرك ، تقدم منها ملوحاً بعصاه ، فصرخت به :
اخفض يدك .. فصعق وجمد في مكانه ، وقد زاغت عيناه وخارت ركبتاه ، وتصبب العرق من كل انحاء جسمه ...
ـ حشاش عتيق .
ـ .. وقبل أن يسترد وعيه سمعها تقول : تنتظركم أيام سود يقتل فيها الأخ أخاه ، وتأكل الأم بنيها ، وتمطر السماء دما وقيحاً ، و يعم الخراب دياركم ..

ثم وقعت على الأرض ميتة .

ـ ومن سجل هذه الحكم ؟
ـ نقلها الراعي نفسه إلى الشيخ .
ـ بنصها ؟

ـــ شيطان الشيخ وشيطان العنزة واحد.

«٠٠ الفاتحــــــــــــــة»

ـــ أخيرا جاء الخلاص.
ـــ عجلوا نعزي قبل اشتداد الزحام.
ـــ لقد أصطف عند المدخل اكثر من عشرة رجال ٠٠
ـــ ترك ثروة كبيرة.
ـــ طوبى لمن سيحظى بزوجته الثانية.
ـــ أين سنلتقي ؟
ـــ خارج المقبرة.
ـــ ٠٠ أو في المقهى ٠٠

***




المطار

المطار

التاسعة صباحاً . من المقرر أن تقلع الطائرة من مطار باريس ، متوجهة إلى بيروت ، في الحادية عشرة والنصف . ساعتان ونصف الساعة من الانتظار . وصلت باكراً . بعض المطارات الكبيرة توفر للمسافرين أجواء مسلية تساعدهم على قتل الوقت . الوقت يقتلني . القاعات الرحبة تغص بأصناف شتى من البشر بين مسافرين ومودعين . فكرة الهرب من باريس تلح عليّ منذ أسبوع ، تضغط بقوة على أعصابي ترافقني في الليل وفي النهار ، تلهب أنفاسي ، تشل خطواتي ، ترقد بيني وبين « كريستين » ، تحول بين أجفاني والغمض ، تحملني إلى معارك الأسواق التجارية في بيروت ، وتصبغ أحلامي بلون السواد .

ولكن متى ينتهي هذا الوقت الهائل من الانتظار؟ العربة المثقلة بحقائبي تجرني خلفها باتجاه المقهى . حظيت بطاولة وكرسيين ، أول بادرة ودية . ألقيت محفظة يدى على كرسي ، وتهالكت على الثاني . التعب ليس في قدميّ . قبالتي حانوت الكتب والصحف وألوان من الحلوى . ليس لدي رغبة في قراءة ولا في طعام . ألج إلى نفسي فاصطدم بالفراغ ، أنظر إلى الوجوه فتصفعني صنميتها البليدة . تبدو على يساري اللوحة الكبيرة السوداء الخاصة بمواعيد الإقلاع وأسماء المدن . لا وجود لإسم بيروت . ربما زال نهائياً . شعرت بانقباض . في أعلى اللوحة ، وفي زاويتها اليمنى ساعة ضوئية ، أشعلت سيجارة . يجب أن أفكر في شيء محدد ، وعلى نحو جدّي . التاسعة وإحدى وعشرون دقيقة من صباح الأحد الثاني عشر من نيسان سنة الف وتسعما . . سرب من الفتيات اليافعات يهبط على المقهى

كرفٍ من الحمام . الوجوه الصنمية تستيقظ . فتاة شقراء عذبة الوجه ، عسلية العينين ، تتقدم ، بخفر ضاحك وتستأذنني بما يشبه اللغة الفرنسية ، باستعارة الكرسي الذى أحمل عليه محفظة اليد ، مددت يدي إلى المحفظة ، وأنا أحملق في خريطة وجهها الندي كما كان هتلر يحملق فى خريطة أوروبا . راودتني الرغبة بدعوتها إلى الجلوس برفقتي وبمجرد أن رفعت المحفظة قليلا ، اختطفت الكرسي ، باسمة ، وغاصت بين رفيقاتها . «ليت لجميع النساء ثغرا واحداً . . » من قال ذلك؟ من؟ « . . إذن لقبلته واسترحت» . الشاعر الانكليزي بيرون . التاسعة وسبع وثلاثون دقيقة . ما أحوجني إلى إنسان يحدثني . ما أبطأ سير الدقائق . عندما أنبأت «كريستين» ، يوم أمس ، بموعد سفري نظرت إليَّ وهي تبتسم ابتسامة خاصة ـ أظنها ابتسامة إشفاق ـ وبعد فترة قصيرة من الصمت ، أشعلت سيجارة وراحت تنفث دخانها ببطء ، ثم عادت إلى نفس الابتسامة وقالت :

ـ لم تحدثني من قبل عن رغبتك بالسفر ، وطلقات المدافع تكاد أن . . . . . ، فما الذي طرأ؟

«لم أحدثها من قبل!» كأنها تجهل السبب ، «طلقات المدافع!» لا تعرف ما الذي طرأ! . . ولكني اجبتها بحزم ، ودون أن يرف لي جفن :

ـ لا شيء أبدا ، علمت أن والدي مريض جدا ، ألا يجدر بي أن أذهب لزيارته وقضاء بعض الوقت بقربه؟

ـ هذا شئ طبيعي . .

وبعد لحظة ثقيلة من الصمت :

ـ . . سارافقك غدا إلى المطار ، إذا شئت ذلك .

ـ غدا ، يا عزيزتي ، هو يوم أحد ، والسير كما تعلمين يكون على أشده فمن الأفضل أن استقل القطار .

ـ كما تريد . .

وانصرفت متجهة إلى المطبخ الصغير لشقتنا المشتركة . الساعة التاسعة وخمسون

دقيقة. كانت «كريستين» على يقين بأني أكذب. والدي يموت، منذ بداية الحرب، كل يوم أكثر من مرة. الفتيات المكدسات بجواري يملأن المقهى زقزقة صاخبة. لن أعود إلى باريس. كندا أفضل. وإذا ما اضطررت للعودة يوما، فلن ألتقي بـ «كريستين»، يجب ألاَّ أراها ثانية، حتى وإن اشتقت إليها. الأمر يبدو خطيراً. «يبدو خطيراً».

ــ لا أعتقد أن هناك حاجة لكلمة «جداً» ــ صوت المذيعة يعلن عن موعد إقلاع الطائرة المتوجهة إلى ميونيخ. سرب الفتيات يغادر المقهى في جو من المرح الطروب. أي حشد من الجمال يغيب. اشتد الصخب في رأسي مع عودة الصمت. «ما الذي طرأ؟» كأنها لا تدري. «صوت المدافع». لا بد في هذا العالم القذر من بؤرة أو من بؤر دائمة الاشتعال. قذائف مدافعنا من ذهب، وكلام إذاعاتنا من در، وورق صحفنا أخضر

نادر. عاد المسافرون والمودعون يتحركون، أمام المقهى كالدمى الموصولة بخيوط غير مرئية. عبثاً أحاول استقراء الوجوه. على يميني مكتب عال يبدو من خلفه رأس مضيفة شابة، بين الدقيقة السابعة بعد العاشرة، والدقيقة الثامنة فترة دهرية اعتصرت ما بقي في قعر الفنجان من قهوة. ما أشد شوقي إلى العودة للوطن، أو لما بقي من الوطن، وما أشد نفوري منها. أسم بيروت لم يظهر بعد على اللوحة السوداء. المضيفة الشابة تحرك شفتيها، عند الكلام، على نحو شهي. «ليت لجميع النساء..» ثلاث سنوات ونصف السنة. استقبلتني باريس بترحاب عطوف: وثيقة إقامة دائمة، وعمل مريح، وجنسية فرنسية متى شئت، ثم.. كريستين. لا أدري إذا كانت قد عادت للنوم بعد توديعي. قالت لي يوم تعارفنا أمام كابين للهاتف العام:

ــ يبدو لي مما أقرأ وأسمع أن لبنان بلد جميل جداً يختلف تماما من سائر بلدان المنطقة.

قلت باعتزاز وأنا انتهب من عينيها نشوة لاهبة:

ــ وأكثر مما تتصورين، زرقة شواطئه كزرقة عينيك الجميلتين ولون تفاحه بلون خديك. وغالبية سكانه كالأوروبيين في كل شيء.

قالت بحنان عذب:

ــ من المؤسف أن يحدث بين بنيه ما حدث • وعسى أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه في السابق •
ــ وعندما يتحقق رجاؤك سيسعدني أن أدعوك لز يارته.
ــ صحيح ؟
ــ بكل تأكيد، أما الآن فهل تقبلين دعوتي إلى شراب منعش ؟
ــ بكل سرور•

لم أكن أتصور، من قبل، أن مثل هذه العلاقات يمكن لها أن تنعقد بمثل هذه السهولة • اسم بيروت يظهر على اللوحة السوداء • الساعة العاشرة وخمس وعشرون دقيقة • كثرة التدخين أفسدت مذاق الدخان في فمي • جمود الأشياء والكائنات في الباحة الرحبة يمزق ما بقي من أعصابي • أشعر برغبة مجنونة في الصراخ • لو يقع حادث ما ليقتل هذا الجمود الرهيب من حولي • حر يق في إحدى قاعات المطار، معركة بالرشاشات، عبوة ناسفة، أو أي شيء يزلزل الأجسام والعيون و يشيع فيها معنى الوجود الحي • قالت لي كر يستين

بعد لقائنا الرابع أو الخامس:
ــ لماذا لا نعيش معاً ؟

فوجئت فتبلبل لساني، تمالكت نفسي لأقول شيئا ما، ولكنها استأنفت ضاحكة:
ــ لا تخش شيئاً، لقد تجاوزت السن القانونية منذ قرن، ولي عملي وراتبي، وأسكن في شقة صغيرة، ولكنها تسع إثنين، وعمري • • • كم تقدّر عمري؟
ــ إحدى وعشرون سنة •
ــ بعد شهر ين • • • شهر ين وستة أيام بالضبط، أتم الرابعة والعشر ين، سرعان ما يهرم المرء • •

قلت متلعثما:
ــ ولكني دون عمل •
ــ ستجد عملاً • • أما الآن فباستطاعتنا تدبر الأمور.

استعدت نخوتي بسرعة، فقلت :
ــ كـم أنـت رائـعـة يـا «كر يستين» ، كم أنت رائعة ، سنعيش معاً وإلى أن أجد عملاً ، سننفق مما لديِّ في البنك من وفرٍ .
ــ لا أهمية لذلك، بل المهم أن نعيش معاً ودون منغصات .

كانت جميع حركاتها وكلماتها تنطق بحب صادق . «طلقات المدافع!» أرقام الساعة الضوئية منيخة كجبل صنين . «لا حل لمشكلة لبنان إلا بواسطة اللبنانيين أنفسهم» . الغربة أثارت فينا الحنين للخبز المرقوق . مواعيد الإقلاع تتبدل أمام نظري، على نحو مؤذٍ العاشرة وأربعون دقيقة، منذ دهر كانت العاشرة وأربعين دقيقة . فنجان القهوة الثاني يفرغ بدوره . أشعر بجفاف في فمي . عندما أعدَّت كر يستين قهوة الصباح، في مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضي، جلست قبالتي وقسمات وجهها الوردي تنضح بكل عبارات السعادة، ثم قالت، وهي تسكب القهوة كما علمتها :

ــ لدي نبأ سار يا مجرمي الحبيب .
ــ لقد نلت ترقية على ما أظن .
ــ أيها الغبي، ليس هذا ما يشغلني .

خامرني شعور غامض وأنا أتأهب لتناول فنجان القهوة، فقلت :
ــ ماذا في الأمر؟
ــ ماذا في الأمر؟ إنه نبأ هام، هام، سيسرك كما سرني!
قلت متكلفا التظاهر بنفاذ الصبر:
ــ هاتي إذن . .
قالت بنشوة أذهلتني:
ــ أنبأني الطبيب، يوم أمس، بأني حامل منذ ستة أسابيع .

كان فنجان القهوة بين أصابعي، يقترب من شفتي، ولكنه لم يصل، اعدته إلى مكانه بسرعة بعد أن اشتدت الرجفة في يدي، لم أستطع التحديق في وجهها، حاولت السيطرة على لساني فلم أفلح، فجاء همسي عواء منكراً:

ــ ماذا تقولين؟

فقالت وقد شحب وجهها:

ــ ماذا دهاك؟

شعرت بالخجل، وأحسست بشيء جامد يستقر في أسفل حلقي، وبيدى المضطربة أمسكت بيدها الباردة لأقول لها بصوت خفيض:

ــ عفوا يا حبيبتي..

تابعت بصوت متهدج:

ــ .. عفوا، تعرفين جيدا الظروف المحيطة بي، اقصد بنا، فالمصير مجهول، وقد اضطر للعودة إلى بلدي. ما من شيء يعادل سعادتي بأن اكون أبا لطفل أنت أمه، ولكن لا ينبغي أن نتسرع في أمر خطير كهذا الأمر، كيف نضمن لطفلنا استقراراً ما زلنا نحن نفتقده؟..

كنت أنوي الاستمرار في الكلام بعد أن وجدت براعتي في اختيار العبارات المناسبة، أن أصل إلى اقناعها بمرافقتي إلى طبيب متمرن، صديق لي ومواطن. ولكن بمجرد وصولي إلى كلمة «استقرار» كانت قد نهضت مبتعدة عن السرير، لترمقني بنظرة غريبة وتقاطعني بحدة:

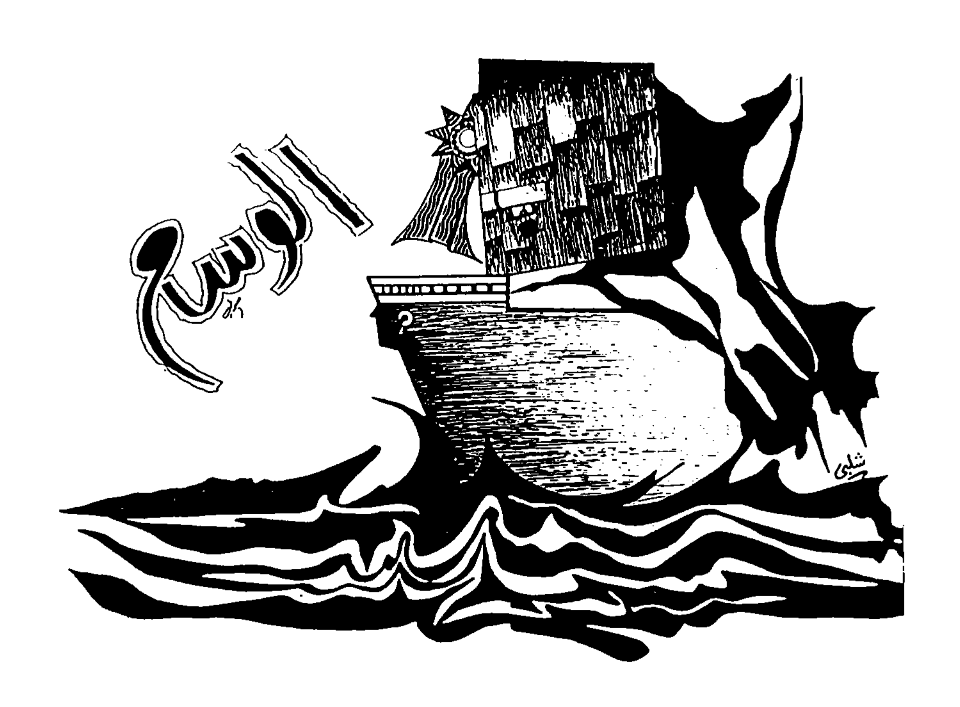
ــ رويدك قليلا، لا موجب لهذا السيل من الأعذار، أنا سعيدة بحملي كأم لا كزوجة.

تجاهلت الطعنة، وحاولت، وأنا أعد نفسي للهرب من باريس أن أزيل أو أخفف

من جو التوتر المخيم على شقتنا الصغيرة. أنا أخيرا في المطار، في طريق العودة، العودة!.. إلى أين؟ كل فرد من هؤلاء المسافرين الذين يحدقون في اللوحة السوداء له وجهة محددة، له وطن يؤوب إليه، له سماء تظله، له أرض قد تسعده وقد تشقيه، ولكنه في الحالتين يعتنقها عمراً وتعتنقه رفاتاً. هل الجنين الذي أنبأتني عنه «كريستين» هو السبب الحقيقي لهربي؟ بئس العذر. هكذا تخليت من قبل عما كنت أدعوه وطني، تخليت عنه ببساطة بعد أن أسلمته للدمار، الوطن كان بالنسبة لي وبالنسبة لغيري كهذا المطار، وسيلة عبور، عبور إلى شيء ما، إلى غاية ما. وطني كان عشيقي وعندما جفَّ نسغه نبذته. لتعلن المذيعة مرة، ومرتين، عن حلول موعد إقلاع الطائرة، ولتذكر اسمي بالذات، لقد فقدت الوطن ودفء ترابه، وفقدت «كريستين» وثمرة حبها الكبير، ولم يبق لي سوى هذا المطار، للإقلاع نحو مزيد من التيه.






الوسع
شلبي



الوسام

الرصاصة في صدره، لا شك بأنها أصابت منه مقتلاً، لم يشعر بالاختراق، ارتج جسمه بسرعة خاطفة مع تكسر داخلي . أحشاؤه تلتهب . نار مسعورة، مخيفة، غطت الصدر وارتفعت نحو الرأس، إنه يتنفس ناراً . لماذا الصدر؟ كان التصويب دقيقاً، استهدف القلب، شيء يشبه لحظة الموت، الأيدي تحيط به، المقهى يتحول إلى قاع مظلم، تتراقص فيه وجوه شاحبة، وتتراءى كؤوس متنوعة . ثمة صيحات مختلفة . الجميع ينتظرون سيارة الإسعاف، الألم يشتد، رأسه يثقل . ما زال يرى خيالات الأشياء .. جبال الأوراس الشاهقة إلى ما لا نهاية، القرية المعلقة في خاصرة الجبل، جرار الماء، كريمة تبتسم بحياء، عكاز جده، ميناء الجزائر، الباخرة ...

.. الباخرة تطلق صفارة الإقلاع الكئيبة، أرصفة الميناء تنأى ببطء، وتنأى معها أيدي المودعين . ما زالت فرنسا مورداً للرزق ومثاراً لأحلام اليافعين، الجبال الشاهقة تلوح، كالحلم الهارب في الأفق الداكن البعيد . عيناه تفيضان بالدمع . كان يحلم أن يكون سفره برفقة كريمة في شهر عسل . لا عمل في القرية . كريمة لا تستطيع الانتظار إلى الأبد . ما زالت فرنسا مورداً للرزق .

مئات الألوف من أبناء وطنه اجتازوا البحر، وعشرات الألوف يجتازونه كل عام . الفرنسيات يرغبن في الشباب السمر . سنوات الاستقلال الطويلة لم توفر العمل للجميع . لا يبقى سوى البحر، يحمل الأحلام الندية و يعود بها حطاماً . رسائل ابن عمه الآتية من مرسيليا تغريه بالسفر . فرنسا وطننا الثاني . جده شارك مع الجيش الفرنسي في معركة

«فردان» . الشواطىء تبدو لعينيه، من البحر، ساحرة المنظر. قالت له كريمة، يوم حدثها عن السفر: اكثر شبابنا لا يعودون. الباحث عن عمل لا وطن له. الباخرة الفرنسية الهرمة تسير في بحر هادىء، لم يشعر بدوار البحر. قال لكريمة: سنتان فقط. سيفي بالوعد، لن يدعها تنتظر طويلاً، ترك جده ساقه اليمنى في ساحة المعركة. الشواطىء الجميلة تختفي وراء الأفق. قال له ابن عمه في رسائله: العمل مضمون. عاد جده إلى القرية بساق خشبية وعكاز ووسام معدني. بقيت أمينة، وهي تودعه، جامدة كصنم. لم تقل شيئا، عيناها قالتا أشياء كثيرة. الجميع يرددون بأن عبور البحر هو عبور نحو السعادة. لا يتذكر عدد المرات التي كان يستمع فيها إلى جده وهو يطنب، بصوت أبح، في سرد مآثره في المعركة الشهيرة. لكن أباه لم يعد من الهند الصينية، لم يعد أبدا، لا حياً ولا ميتاً. قال الضابط الفرنسي لجده، وهو يقلده وسام الشجاعة: «برافو آراب»، وتنطلق من الفم الأورد ضحكة مجلجلة. صمت كريمة يعذبه، يحرمه من متعة السفر. معظم منازل القرية شيدت بأموال المهاجرين. يوم سيق والده إلى الهند الصينية كان لا يزال في الثالثة من عمره. لا يعرف عن أبيه سوى الصورة المعلقة على أحد جدران المنزل. قال الموظف الفرنسي وهو يحمل النبأ إلى الجد: البطل يلد بطلا. اللغط يرتفع بين المسافرين. معظمهم من مواطنيه. ليست لديه أية رغبة بالكلام. نصحه بعض شيوخ القرية أن يحمل براءة الوسام معه فربما احتاج إليها في الدوائر الفرنسية. مات أبوه في أقصى الأرض، مات شابا دون وسام ولا فاتحة ولا كفن. بعض الأسماك الكبيرة تقفز، جذلى أو مرعوبة، على مقربة من الباخرة. كان جده يردد، معتزا، بأن اللون الأحمر في العلم الفرنسي هو لون دمائنا، ثم يعيد الوسام، بيد مرتجفة، إلى مكانه من الخزانة الخشبية. لم يفهم جيدا ما قالته له أمه وهي تودعه إلى منزل آخر، كان في حدود العاشرة من عمره. استعان جده بوسام الشجاعة ليحول دون سوق ابنه البكر إلى الهند الصينية. «عظمة فرنسا وشرفها»، قال له الضابط الفرنسي مؤنباً.

الباخرة تهتز، لون البحر يتغير، الشق الطويل من المياه، خلف الباخرة، يمتد إلى شواطئ وطنه. ليت كريمة نطقت بشيء ما. اللغط على ظهر الباخرة يشتد و يعلو، ثمة خيط واه من البحر يلوح في أقصى الأفق، صدره ينقبض بقوة. ها هي الأرض التي

دغدغت أحلام صباه طويلاً . في أحشاء بقعة منها تنام ساق جده، وتنام رفات الألوف من مواطنيه . لقد أبت جدته إلا أن تربط المصحف الصغير حول زنده . جميع أقاربه كانوا يرددون حوله كلمات الوداع . أمه كانت تبكي بمرارة . وجود كريمة كان موجعاً بصمته الكئيب . إبن عمه، شقيق كريمة، ينتظره على رصيف المرفأ . رجال الشرطة الفرنسيون يطيلون التدقيق في أوراق المسافرين الجدد . شعر بالضيق . دوار البحر اشتد بعد مغادرته السفينة . بعض المسافرين يجرجرون متاعهم إلى قاعة جانبية لمزيد من البحث في أمرهم . أوجس خيفة . الألم يستقر في مؤخرة رأسه . كاد أن يصرخ بأعلى صوته : كان جدي يحمل وسام الشجاعة لبلائه في معركة . . . ثمة من يناديه باسمه . دوار البحر . بكاء جدته يملأ أذنيه . الموظف الفرنسي يضرب الخاتم على الجواز بعصبية . إبن عمه يجذبه من كتفه بقوة . لم يدر وهو يعانقه بأية كلمات غمغم . ولكن الاسئلة تنهمر بلا توقف . . . وأختي كريمة ؟ أفاق من ذهوله . الشوارع جميلة وانيقة . ليت أمينة قالت شيئا . الغرفة صغيرة ولكنها تتسع لسريرين وطاولة و بعض الرفوف الخشبية . نكهة الشاي تعيده إلى أجواء القرية البعيده . الجميع بخير، أهلك بخير، الجدة بخير وكريمة بخير، أهل القرية بخير، بخير . . عيناه تثقلان، لم يعد يستطيع النطق، الصمت يخيم بعمق . كريمة قبالته بوجهها المضيء وعينيها السوداوين وابتسامتها الواثقة . جده يدور على الحاضرين بوسامه وهو يتحدث عن اللغم الذي أطاح بساقه اليمنى . الضباع تنهش جثة والده في العراء الموحش . الباخرة ترتج بعنف . الصراخ يتعالى . الباخرة تغرق، تغرق . فتح عينه بذعر، ابن عمه يهزه و يناديه مبتسما، لقد انتصف النهار، ابريق الشاي يغلي بصخب . مرسيليا . هذا شارع الميناء، وهذا شارع شارل ديغول، وهذه ساحة النصر، وهذا قصر البلدية، وهناك نصب معركة « فردان » . انفجرا ضاحكين . سياء العمال العرب تدل عليهم على نحو صارخ، غدا مباشرة العمل . قال مدير ورشة البناء بنبرة يابسة : « تحت التجربة لمدة شهر واحد » . أوراق تواقيع لا تنتهي، بعض الكلمات لا يفقه لها معنى الراتب الشهري لا بأس به . نصفه يرسل إلى القرية، وسيحاول التوفير من النصف الآخر . لن يغيب طويلاً . نظرة واحدة من كريمة تعادل مال الدنيا . الرسائل تنتظم مواعيدها ذهابا وإيابا . كل شيء يسير على ما يرام . مراقبو العمل في ورشة البناء الكبرى لا يتكلمون إلا صراخاً . قال الضابط الفرنسي وهو يعلق الوسام على صدر جده : « برافو

آراب» . بعض مواطنيه يتحدثون عن سوء المعاملة وعن الكراهية . قال له ابن عمه: تجنب الاحتكاك بالفرنسيين قدر الإمكان، العربي بنظر الشرطة الفرنسية هو المذنب دائما . المقهى القريب يعمر بمواطنيه يومي السبت والأحد من كل أسبوع . أوراق ملونة ومرقمة ومخرمة . مراهنات على سباق الخيل، أوراق اللوتو، كؤوس الخمرة المتنوعة الأحجام، نظرات الكراهية المشوبة بالاحتقار، شوارع نظيفة، فتيات جميلات . اعتصمت كريمة بالصمت لدى وداعها له . قالت له الجدة دامعة العين: إياك أن تنزع المصحف من زندك . مدير الورشة يوقع وثيقة تثبيته في العمل . الوضع يغدو اكثر استقراراً . لن يخيب رجاء كريمة به أبدا .

يوم أحد مشمس، لظهور الشمس نكهة خاصة في هذه البلاد . إبن عمه يبكر في ارتداء ملابسه، ربما كان على موعد . قالت كريمة: أكثر شبابنا لا يعودون . قال له ابن عمه وهو يغادر الغرفة: سنلتقي في المقهي . كتب رسالة إلى أمينة، قال لها: بدأت أعرف لماذا لا يعود بعض شبابنا، ولكني لا أدري اذا ماكنت سأكمل العام .. وكتب رسالة إلى جدته، وثالثة إلى والدته وزوجها . الشمس الساطعة تثير لواعج الحنين . أودع الرسائل الثلاث مكتب البريد . أحد مواطنيه ربح يوم الأحد الماضي مبلغاً كبيرا بمراهنته على الجياد الفائزة . المقهى يعج برواده . أوراق المراهنات بين أيدي الجميع . اللغط يتعالى بعدة لغات دفعة واحدة: برتغاليون وإيطاليون وفرنسيون وعرب وأسبانيون . الجميع يراهنون و يتشاورون و يشربون . والجميع يحدوهم الأمل بالربح . صراخ مفاجيء، ثمة عراك كلامي بين شاب فرنسي وآخر عربي . الحاضرون يفصلون بينهما، الشاب الفرنسي يغادر المقهى شاتماً متوعداً . صاحب المقهى يطلب من الشاب العربي مغادرة المقهى، فيرفض . قال لنفسه: سأنتهي من شرب القهوة وأعود . بحث بنظره عن ابن عمه فلم يره . إذا كان على موعد خاص فلن يأتي، مد يده إلى جيبه ليدفع ثمن القهوة، اللغط يعود بين رواد المقهى صاخباً كما كان قبل الحادث العابر . صاحب المقهى يرجع له باقي حسابه . دراجة نارية تقف هادرة أمام باب المقهى العريض . كان يستدير متوجها نحو الباب عندما انطلق الرصاص بغزارة نحو المقهى . هرج جنوني . أحس بشيء حارق في صدره، مد يده إلى موضع الألم فاصطبغت بالدم، الدراجة النارية تنطلق كالسهم . الأصوات

تتعالى. صرخ بقوة: لقد أصبت. ثم استند إلى حافة البار. هاله منظر الدم على يده. ثمة من يتقدم منه ويمسك بزنده. ولكن الرصاصة في الصدر، في مكان ما من صدره، ليت ابن عمه قريب منه، سمع صوت تكسر حاد في داخله، ثم اعقبته نار حارقة. جسمه يشتعل، لم يعد قادراً على الوقوف، عيناه تزوغان، إنها لحظة الموت، شيء يشبه لحظة الموت، المرئيات تتحول إلى ظلال وأشباح. لماذا الموت؟ لماذا هو بالذات؟ لا، الإصابة ليست مميتة، ليست مميتة، ألم فقط، ألم رهيب، سيزول، سيعالج، الدنيا تظلم، الضغط يشتد على زنديه، رأسه يميل، يسند إلى شيء صلب، لعله حافة البار، لعله رأس مواطن، لعلها قبضة الموت. لا، لن يموت بهذه السرعة، سيعود إلى الغرفة، سيعود إلى القرية، إلى كريمة، إلى جدته، سيرمم المنزل القديم، سينجب كثيراً من الأولاد، الألم يزول، يزول نهائياً، كريمة تلوح بيديها الاثنتين على رصيف الميناء، ابتسامتها تتسع، عيناها تضيئان، جميع سكان القرية في استقباله، جده يحمل وسام الشجاعة على صدره و يتقدم الجميع مادا ذراعيه، الضباع تنهش جثة والده في العراء الموحش، الأمواج تثور وترتفع، منازل القرية تتدحرج نحو الوادي العميق، الباخرة تغرق تغرق تغرق وتغيب في ظلمة القاع.



فهرست

الموضوع | الصفحة

